# أسطورة الخلق – سفر في الميثولوجيا

عبد المجيد طعام

العنوان : اسطورة الخلق
الكاتب : عبد المجيد طعام
السلسلة : ورش الفلسفة للجميع
رقم أُيداع : 2023MO3879
الرقم الدولي :978-9920-9905-9-2
الناشر : تعاونية زيري للطباعة والنشر وجدة
السنة : دجنبر/ كانون الأول 2023

بين شقائق النعمان والهراشة

قصة حب أسطورية

هذا الكتاب
هو ثمرة تجربة عمل جاد ومسؤول في مشروع " ورش الفلسفة للجميع" انطلق المشروع مطلع 2018 على قنوات التواصل الاجتماعي ليتحول أخيرا إلى سلسلة كتب ورقية.

## 1- عندما خلق الإنسان الأسطورة

حينما نقوم بدراسة الأساطير، سواء تلك البسيطة أم المعقدة، يمكن أن نلاحظ وجود أصل واحد تشترك فيه جميعها، نلخصه في حالة الفوضى الكونية والاجتماعية التي سبقتها أو تزامنت معها .

مع بداية ظهور أولى الأساطير لم يكن هناك تمييز واضح بين الكائنات الحية، وكان ذلك يقلل من فرص العيش بأمان. تميزت المرحلة بصراع دامٍ ، استخدمت فيها كل الوسائل المتاحة من أجل البقاء، منها الأساطير التي ستعرف تطورا مهما وتصبح أكثر تعقيدا ، خاصة بعد أن تحول الصراع من صراع الإنسان / الطبيعة إلى صراع الإنسان /إنسان.

مع هذا التحول الخطير سيحتمي الإنسان بالأسطورة وقدرتها على إعادة هيكلة الثقافة والتخفيف من حدة القلق الذي أنتجته تساؤلات الصراع الجديد، بفوضاه الوجودية والاجتماعية والثقافية والكونية.

إن الوظيفة التنظيمية التي منحت للأسطورة كانت ضرورية لإعادة توحيد المجتمع واستعادة النظام والتخفيف من حدة الأسئلة الوجودية ، وهذا ما سيؤدي إلى خلق إله أو آلهة وبناء المعابد والانخراط الجماعي في طقوس تعبدية ، على رأسها طقس تقديم القرابين للآلهة أوما يسمى " طقس الذبح ".

يوجد في كل الأساطير نمط بدائي للذبح ، في البداية كان الإنسان نفسه هو القربان الذي يقدم إلى الإله / الآلهة ، من الأمثلة الشهيرة على الحضارات التي كان يضحى فيها

بالأفراد تقربا للآلهة نذكر حضارة الأزتيك في المكسيك القديمة. كانت هذه الحضارة تؤمن بوجوب تقديم الأشخاص كقرابين للآلهة لتهدئة غضبهم وتأمين رحمتهم ودعمهم ، كان يُعتقد أن القرابين البشرية تساهم في تجديد الدورة الحيوية والتوازن الكوني وتوفير الخصوبة والحماية.
كانت التضحيات البشرية تتضمن إجراءات قاسية، لدى الأزتيك كان يتم استخدام الأسرى كمصدر للتضحية، قد يتم قتلهم بوحشية أو التضحية بهم بطرق مختلفة، مثل التعذيب أو القتل عن طريق استخدام الأدوات المعدنية المشحونة بالشوكولاتة لاختراق الصدور واستخراج القلوب.
حينما تطورت الأسطورة وأفرزت أديانا ذات نظام بسيط يهدف إلى استقطاب فئات اجتماعية واسعة ،تم استبدال الإنسان / القربان ، بالحيوان / القربان ، سيفرز هذا التحول طقوسا أكثر بساطة وأقل تراجيدية ، ولكنه سيستمر في التعبير عن التنظيم الأصلي للأزمة الناشئة عن طقس التضحية المتكرر دوريًا. إن هذا التحول من الإنسان/ القربان إلى الحيوان/ القربان ، استلزم نضالا مريرا ،وتضحيات جسيمة ، لهذا ظل يحمل بين طياته ملامح العنف الذي عاشته البشرية .
قدم طقس القربان أجوبة للبشرية لكثير من أسئلتها الوجودية ، كانت الشعوب القديمة تنتخب الضحية بالإجماع لتقديمها قربانا لأله واحد أو لمجموعة من الآلهة . جميع الممارسات المرتبطة بطقوس تقديم القرابين في الأساطير والأديان ، تشير إلى تكرار المأساة الناجمة عن الذبح بأهداف تطهيرية.

إن هذا التحول من طقس الإنسان / القربان إلى الحيوان / القربان ، سيعطي بعدا جديدا لكل الطقوس التعبدية ، بحيث ستصبح ممارسة جماعية وهكذا ستظهر الحاجة إلى بناء المزيد من المعابد ، أين ستعقد الصلوات وتتلى أساطير الكوسموغونيا التي تحكي قصص خلق الكون ووصف الظروف الأولية لنشوئه ، ويشير مصطلح الكوسموغونيا إلى عملية تكوين الكون أو بدايته ومنهجية تكوينه.

يجب التمييز بين مجموع أساطير الكوسموغونيا التي انتجتها البشرية على امتداد تاريخ طويل ، وأن كانت كلها تتحدث عن أصل الكون وخلقه.. تعتبر هذه الأساطير جزءًا من تراث العديد من الثقافات والديانات حول العالم. تتنوع أساطير كوسموغونيا في مضمونها وتفاصيلها حسب الثقافة والدين الذي يرويها. قد تتحدث هذه الأساطير عن خلق العالم بواسطة إله واحد يستأثر بمهمة الخلق ، أو عن عملية التفكك والتشكل الكوني، أو عن النشوء والتحولات الأولية في الكون.

تعد أساطير الكوسموغونيا جزءً هامًا من تاريخ الفكر البشري وتعبر عن الفهم الأساسي لأصل العالم والبشرية في العديد من الثقافات .

إن أساطير الكوسموغونيا ليست مجرد نصوص تفسيرية، بل هي تتناول الأصل النهائي لكل شيء. تتميز ببنية شاملة ؛ شكلها الفكري الفلسفي واللاهوتي ليس سوى جانب واحد من وظيفتها كنموذج للحياة الثقافية. على الرغم من أن أسطورة الكوسموغونيا لا تؤدي بالضرورة إلى التعبير الطقوسي، إلا أن الطقوس في كثير من الأحيان تعتبر التجسيد المثير

للاهتمام بالأسطورة. يتم أداء هذا التجسيد لتأكيد دوام وفاعلية مواضيعها المركزية ، التي تكمل وتدعم بنية المعنى والقيم في الثقافة التي أنتجتها .

إن تجسيد الطقوس المستقاة من الأسطورة هو بداية رفع المنتج البشري إلى درجة المقدس المهيمن ، حيث يسعى المجتمع الديني في تقديسه للنص البشري إلى إحياء وهم البداية في كل حين . وهكذا يتم تأسيس مفهوم الزمان داخل المجتمع الديني.

بالتأكيد، في معظم المجتمعات يوجد مفهوم للزمان المقدس والزمان العادي. أسطورة الكوسموغونيا المقدسة تفرض نفسها على أنها تمثل الزمان الحقيقي الذي لا ينتهي ، إن هذا الزمان هو الأكثر فعالية في حياة المجتمع ، هو ما يوحد أفراد الجماعة، ويحرك عقلهم الجمعي نحو الثبات في حيز الزمان المقدس الذي يوهم أفراد المجتمع بأنهم يتشاركون في زمان يتميز بجودة مختلفة عن الزمان العادي، الذي يميل إلى أن يكون محايدًا ومؤلما في معظم الأحيان ، لأنه هولامي غير ثابت . من هنا سيتم تفادي الزمن العادي ويتم التحدث عن جميع الأحداث الزمنية المهمة بلغة أسطورة الكوسموغونيا فقط ، عن طريق الرجوع إلى هذا النموذج الأصلي يتحقق الوجود الوهمي ،فيفتر التوتر أثناء مواجهة الأسئلة الوجودية المقلقة.

بنفس الطريقة، يحضر التعبير الفني في المجتمعات القديمة أو "البدائية" ويستمر ذلك في الكثير من المجتمعات الحالية ، وهو مرتبط غالبًا بالعروض الطقسية، يستلهم هيكلية

الأسطورة، الأقنعة والرقصات والحركات هي بطريقة أو بأخرى جوانب من هيكلية أسطورة الكوسموغونيا.
إن أسطورة الكوسموغونيا / أسطورة الخلق تضع الإنسان في مكان/ حيز / فضاء، هذا التحييز يجعله يعيش زمن الرمز والتجربة ، من خلال الرموز تتحدد مكانة الإنسان في الفضاء ، ومن خلال التجريب ينفتح على محيطه الطبيعي ، في الواقع تعتبر الأسماء المعطاة للنباتات والحيوانات والتضاريس جزءًا من توجيه البشر في الفضاء. تطور اللغة في المجتمع البشري ما هو إلا امتداد للغة أسطورة الكوسموغونيا.
إن الترتيب الأولي للعالم من خلال أسطورة الكوسموغونيا / أسطورة الخلق ، يمثل الهيكل الأولي للثقافة ، أي الثقافة في شكلها الجنيني ، التي ستنتج أنماط الحياة الثقافية المختلفة والمتنوعة. إن إعادة استحضار الأسطورة والاحتفال بها يمكّن أفراد المجتمع الديني من التفكير في الزمان والمكان والتعرف على حياتهم الثقافية بطريقة محددة والتشبع بها ونقلها عبر الأجيال .
لم يظهر العالم كهيكل من المعنى والقيمة بنفس الطريقة في جميع الحضارات البشرية. وبالتالي هناك تقارب بين عدد من الثقافات البشرية ،وأساطير الكوسموغونيا/ أساطير الخلق. إلى وقت قريب، كان تصنيف هذه الأساطير على مقياس تطوري، من الثقافات الأقدم إلى الثقافات الغربية المعاصرة ،أي من الأبسط المفترض إلى الأكثر تعقيدًا، هو النمط الأكثر تفوقًا في ترتيب هذه الأساطير، ومع ذلك بدأ العلماء في القرن العشرين ينظرون إلى أنواع مختلفة من الأساطير من حيث

الهياكل التي تكشفها بدلاً من التعامل معها على أساس المقياس التطوري الممتد من المفترض البسيط إلى المعقد، في الواقع لا توجد أساطير بسيطة بشأن بداية العالم، لأن بداية العالم هي في الوقت نفسه بداية الحالة البشرية، ومن المستحيل التحدث عن هذه البداية كما لو كانت بسيطة.

في المجتمعات التي لا زالت فيها أسطورة الكوسموغونيا تحيز الأفراد في الفضاء سواء كانت مجتمعات تقليدية أم معاصرة ، يستفيد جل الأفراد الأحياء والأموات من الطقوس التي أنتجتها الأساطير ، وكلما تم إحياؤها ينشا الشعور بتجدد المجتمع بأكمله ،ويعاد اكتشاف مصادره وأصوله. كما تؤمن العديد من المجتمعات التقليدية بفكرة التجدد الكوني ، من خلال إحياء أساطير الكوسموغونيا بممارسة مجموعة من الطقوس الجماعية..

قصة الخلق التي تنقلها أساطير الكوسموغونيا هي قصة خرافية دينية خارقة، أو تفسير يشرح بدايات البشرية والأرض والحياة والكون ، كفعل مقصود لـ "الخلق" من قبل إله واحد أو أكثر.

تشترك العديد من قصص الخلق في موضوعات مماثلة بشكل عام. وتشمل الرموز الشائعة وتجزئة أشياء العالم من الفوضى الأصلية، وفصل الآلهة الأم والآب، وظهور الأرض من محيط لانهائي وخالد، أو أن كل شيء نبع من بيضة كونية أو ظهر الخلق من العدم ، ونظرًا لكون هذا النمط شائعًا جدًا في الأساطير القديمة، فإنه يُعتبر أقدم من الأرض نفسها .

عن طريق سرد قصة خلق التي انبثق فيها الكون من الفوضى والعدم ، تكشف أسطورة الخلق في التاريخ البشري عن

السحر الذي يسيطر على الإنسان لتتبع الإبداع وتشكيل الكون الذي يعيش فيه ،وفي نفس الوقت تتبع ووصف الاندفاعات المختلفة والمأساوية للمقدس في الكون ، الذي يحاول أن يجد له تفسيرا ،وقد اقتنع بإن هذا الاندفاع للمقدس/ الإله هو الذي يؤسس الكون في شكله الحقيقي ،ويجعله كما هو اليوم ولكنه في نفس الوقت مختلف.

كل الثقافات القديمة طرحت أسئلة عن خلق الكون وكانت لها إجابات تتقاطع وتتباين ، وقد صاغت اجوبتها على شكل أساطير وقصص خرافية ، تنوع فيها السرد والخيال ، كما تعددت الشخصيات التي كانت تشكل قطب الصراع الدرامي ، قد نجد في بعض الأساطير شخصيات إلهية يكون موتها جزءاً أساسياً من الواقع، هذا النوع من الأساطير شائع جداً في المجتمعات الزراعية التي تنتج الحبوب، ويتكرر حضور العملاق الكوني في الميثولوجيا الصينية و الشمالية ، ويقوم هذا العملاق الكوني بتنظيم الفوضى ، كما يقوم بإبطالها وتحويلها إلى كون ،وفي الأخير يموت بعد أن يخلق كونا منظما ، ونلاحظ تقاطع بين هذا التصور، وتصميم موت المسيح كمنقذ يسعى إلى استرجاع النظام بحمل ذنوب الآخرين .

## 2- أسطورة الخلق السومرية

كان لتحول نمط الإنتاج البشري من الصيد وجني وجمع الثمار إلى الزراعة الأثر الكبير على التطور البشري ، تغير نظام العيش والغذاء والتفكير وظهر المجتمع الزراعي.
لقد فرض نمط الإنتاج الجديد قيما جديدة أهمها الاستقرار والعمل المنتظم وتوزيع المهام ،وتغير النظام الغذائي ، ما أدى إلى ارتفاع ملحوظ في نسبة النمو الديمغرافي، وتوسع مضطرد للمساحات المزروعة من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي ، لكن مع هذا التحول من مجتمع الصيد والجمع والجني إلى مجتمع الزراعة سيدفع الإنسان ثمنا باهظا ، لأنه تخلى عن نظامه الغذائي السابق الغني والمتنوع ، ليعتمد نظاما غذائيا فقيرا أساسه الحبوب ، سينتج عنه خلل كبير أدى إلى ظهور أمراض جديدة لا عهد له بها تسببت في ارتفاع نسبة الوفيات ، كما أن وقوع المجتمعات البشرية تحت رحمة الظروف المناخية سيفاقم مشاكله حيث سيواجه لأول مرة موجات مجاعة خطيرة .
في خضم هذا التحول الكبير الذي مس نمط الإنتاج ، ستعرف التجمعات البشرية تحولات ثقافية وفكرية تنتج عنها معتقدات وقيم جديدة اتخذت صيغ دينية ما بعد بدائية ، ولأول مرة سيصبح الدين في شكله الجديد عاملا مهما في المعادلة الاجتماعية والثقافية والسياسية لتعزيز الاستقرار داخل التجمعات الزراعية الجديدة .
في التجمعات البشرية ما قبل الزراعية ، كانت الحياة بسيطة يتحكم فيها الترحال، وكانت تتكون من أعداد قليلة من الأفراد،

لكن مع ظهور التجمعات الزراعية أنتج الإنسان الاستقرار والعمل المنتظم ووزع المهام ، وهي أمر أضحت ضرورية لضمان البقاء ، زاد عدد أفراد التجمعات البشرية ، توسعت مساحة الأراضي الزراعية ،ظهرت الملكية الخاصة، تغيرت العلاقات بظهور الطبقة الاجتماعية.

لقد تعقدت البنية الاجتماعية ، كان من الضروري إيجاد حلول جديدة للتعامل مع الوضع الجديد، خاصة بعد ظهور التجمعات البشرية الكبيرة، وانتظامها في أنماط ثقافية اجتماعية جديدة كالقبيلة والمدينة ، ظهرت الحاجة ملحة إلى مساحات كبيرة جدا من أجل مضاعفة المحاصيل الزراعية ، ومساحات أخرى لتخزينها لاتقاء شر المجاعات التي قد تحدث لسبب من الأسباب البيئية أو البشرية ، كما بدا التفكير في اختراع أساليب تخزين متطورة ، وانتقاء وتطوير الحبوب ، وبنيت الأسوار وأحاطت بالمدن الناشئة ونصبت الأبواب الضخمة التي يصعب اقتحامها ودرب الحراس لحماية المحاصيل والمدينة وساكنتها من هجوم الأعداء، إلى جانب هذه الإجراءات الجديدة الضرورية ، فكرت المجتمعات الجديدة في صياغة وفرض قواعد ومعايير تنظيمية ، وتطوير طرق توزيع الموارد والمهام لتحقيق الاستقرار والأمان في إطار الحياة المشتركة.

ظهرت الهياكل الاجتماعية والسياسية المنظمة لتلبية هذه الحاجات، وأصبح تحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات أمرًا ضروريًا، كما وجدت الحاجة ملحة لتحقيق الإجماع حول قوانين ومعاهدات وطقوس تكتسب صفة القدسية لتكون ملزمة ، وهكذا سيتم اختراع النواة الأولى للدين المنظم

والمعقد ليصبح العنصر الأساسي ضمن كل الهياكل الاجتماعية والسياسية ،المنشأة المخول لها السهر على إلزام أفراد التجمعات البشرية بتطبيقها ،بشكل يومي في الحياة الفردية والجماعية .كما عرفت المجتمعات تحولا راديكاليا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، سيعرف الدين تحولا جوهريا ،ليصبح الموجه صارم للحياة اليومية والروحية للأفراد، يفرض عليهم نمطا واحدا للتفكير يتماشى مع المجتمع الزراعي الجديد الذي أفرز علاقات استغلال لم تعرفها البشرية من قبل .

قبل الثورة الزراعية، كانت الطقوس الدينية حاضرة ولكنها كانت تلبي حاجة بشرية لفهم الطبيعة ، كانت بسيطة تميل إلى الخرافة وتبتعد عن الدين كمؤسسة قائمة الذات تؤطر الحياة الفردية والجماعية ، لكن مع تعقد حياة الإنسان العاقل وظهور هياكل ومؤسسات سياسية واجتماعية جديدة، أصبح من الضروري وجود نظام يجمعها تحت مظلة واحدة يتغلغل في جميع جوانب الحياة، وهكذا ظهر الدين المنظم الذي يتضمن التشريعات والأوامر والنواهي، وهو الدين الذي ظل حاضرًا إلى يومنا هذا. لقد لعب الدين المتطور دورًا كبيرًا، في تنظيم العلاقات بين الأفراد وفي تحديد القواعد والمعايير التي تبدو مشتركة بين الناس لتوفير إطارً أخلاقيً وروحيً يلجأ إليه الأفراد في حياتهم اليومية للبحث عن الأمان .

عندما حدثت الثورة الزراعية أتاحت للإنسان العاقل فرصة للتفكير بعمق في الوجود، وفي أصل الكون والكينونة البشرية، كما وفرت له مساحة أوسع لطرح أسئلة وجودية لم تكن معروفة ، ونظرا لجنينية الفكر البشري في تلك اللحظة،

ستتم صياغة الأجوبة على شكل نصوص أسطورية أو حكايات لسد ثغرات الفراغ المعرفي ، ولكنها تعتبر أساسية ،لأنها ستساهم في بناء فكر فلسفي بموازاة الفكر الديني لفهم المجهول.

نشأت الحضارة السومرية في المنطقة التي تقع قبالة مصب نهري دجلة والفرات ، ما يُعرف الآن بجنوب العراق. يُعنى بـ "الحضارة" في هذا السياق وجود مجتمع مستقر ،في مدينة تتمتع بتكنولوجيا زراعية مستقرة ، بما في ذلك تدجين وتربية حيوانات المزرعة، وتطوير نظامً هرميً للطبقات الاجتماعية، يتكون من المزارعين، العمال، العبيد، الحرفيين ، الصيادين، التجار، الأطباء، المهندسين معماريين، الكهنة ،خدام المعابد، مسؤولين حكوميين، كتاب، مستشارين، ملوك.

نظرًا لأن مناخ جنوب العراق حار وجاف تطلبت الزراعة نظام ري متطور يتكون من القنوات والسدود، للتعبير عن تفوقهم في هذا المجال كتب السومريون في ألواحهم ونقوشهم أن حضارتهم (تقنيات الزراعة، المدن، الفئات الاجتماعية) سبقت ظهور الإنسان على أرض العراق ، وهو اعتقاد راج بين الكثير من الأوساط قديما وحديثا ، يستند على نظرية تفترض وجود تكنولوجيا متقدمة جدًا ، أو هبوط أنواع غير معروفة من الكائنات الفضائية على الأرض ،قامت بتأسيس هذه الحضارة، ولكن إلى الآن لا توجد أدلة تدعم هذه النظرية، لذا تعتبر مجرد تخمين أو افتراض بدون دليل علمي.

كانت المدن السومرية تتكون من تجمعات سكنية مبنية من الطوب الطيني، متكونة من طابق أو طابقين، تستمد ظلها من

معبد الإله المزين بنقوش لكائنات خيالية بجسم حصان وأجنحة ، يعتقد أنها كانت وسيلة السفر إلى العالم العلوي يستعملها الكهنة لتلقي التعليمات من الآلهة مباشرة في ما يخص طقوس القرابين والعبادات المفروضة على البشر.

كان لكل مدينة مقدسة إله واحد وملك كاهن يأخذ كل تعليمات إدارة مدينته مباشرة من الإله، ويسهر على التطبيق المثالي للطقوس والعبادات. كانت ملكية أرض المدينة مقسمة على مجموعة من الأطراف ، كان ربع الأراضي ملكا للإله أي للمعبد كمؤسسة ، أما باقي الأراضي فقد كانت مملوكة من طرف "النبلاء" (الأمراء الحاكمون ومسؤولو القصر والكهنة) ولم يظفر السكان العاديون إلا بالنزر القليل من الأراضي لبناء مساكنهم الطينية البسيطة .

طوّر السومريون نوعًا من الكتابة تسمى المسمارية قبل الميلاد ب3000. بدأت هذه الكتابة ككتابة بيانية ولكنها تطورت فيما بعد إلى نظام كتابة صوتي يعتمد تمامًا على الأصوات حيث يمثل كل رمز مقطعًا صوتيا واحدًا أو أكثر. تسمى هذه الكتابة المسمارية لأنها تتألف من علامات مشذبة بشكل مخروطي تُحفر في ألواح الطين الرطبة بواسطة قلم قصب.

تأسست الحضارة السومرية في منطقة الرافدين (بين نهري دجلة والفرات) قبل الميلاد بحوالي 4000 سنة، واستمرت إلى حوالي 2000 قبل الميلاد. خلال هذه الفترة نجح السومريون في تطوير العديد من الابتكارات الحضارية والتقنيات مثل ابتكار الكتابة الحروفية، وبناء المدن الكبيرة

والآثار الضخمة، وتطوير الزراعة ونظام الري، وتجارة السلع والخدمات، والتقويم الزمني المبني على دورتي القمر والشمس. بموازاة اهتمام السومريين بالزراعة وتطوير كل العلوم التي أمدتهم بالقدرة على تطويع بيئتهم الجافة نسبيا ،لتحقيق الوفرة في الإنتاج الزراعي وبناء حضارة متقدمة ،نضجت تصوراتهم حول إشكالية الخلق، وصاغوا تصوراتهم الوجودية وسجلوها على الألواح الطينية على شكل قصائد وملاحم أشهرها : " ملحمة جلجامش" ، وهي تُعد إحدى أشهر النصوص الأدبية السومرية، وواحدة من أقدم الأعمال الأدبية في التاريخ.

تنسب الملحمة إلى "جلجامش" هو مؤلفها وكاتبها، والشخصية المحورية التي تدور حولها كل أحداث هذه الملحمة الشعرية . جلجامش هو شخصية أسطورية قديمة في الحضارة السومرية . تروي هذه الملحمة قصة جلجامش، ملك مدينة أوروك السومرية، ومغامراته الملحمية خلال رحلته للبحث عن الخلود والحياة الأبدية.

تبدأ الملحمة بوصف جلجامش كملك عظيم وشجاع، وتتحدث عن قيامه ببناء أسوار وأبراج لحماية مدينته من الأعداء، ثم تحكي كيف أنه قرر أن يخوض مع صديقه المخلص "إنكيدو" مغامرة ملحمية إلى أرض الآلهة ، في رحلتهما للبحث عن الخلود سيواجهان وحوشا ضارية.

في نهاية الأسطورة ،نكتشف أن جلجامش فشل في تحقيق هدفه من هذه الرحلة ، لم يتوفق في تحقيق الخلود، فعاد إلى مدينته أوروك حاملاً معه الحكمة والخبرة والمعرفة.

تنقل الملحمة مجموعة متنوعة من الأحداث وتخبر عن بطولات وأمجاد ،إضافة إلى الحديث عن الخلود والجحيم ، ويرى بعض الباحثين أن ملحمة جلجامش تمثل الحلقة الواصلة بين الأديان الشرقية القديمة وأساطير بلاد الرافدين، وتساعد على فهم التحول الذي طرأ على ثقافات المنطقة وأدى إلى ظهور الديانات التوحيدية ، إذ يمكن العثور على مجموعة من نقاط التقاطع بين قصة خلق الكون كما وردت في أسطورة جلجامش ، وبين ما ورد في الأديان والحضارات المتأخرة. عندما نقارن بين ما ورد في ملحمة جلجامش وما تناقلته الأديان الإبراهيمية نجد تشابها كبيرا في الكثير من الأحداث والمواقف، وإن كنا نصادف في بعض الأحيان إضافة أو حذف بعض المقاطع أو تعديلها في نصوص قصة الخلق السومرية لتتناسب مع الطابع الفكري والثقافي الخاص بتلك الأديان و الحضارات المتأخرة.

تتيح ملحمة جلجامش فهمًا شاملاً لتطور الأفكار الدينية والأساطير في المنطقة، كما تمنح للباحثين فرصة لدراسة التأثيرات المتبادلة بين الحضارات المختلفة ،وتطوّر القصص والمفاهيم الدينية على مرّ العصور.

لم تصلنا ملحمة جلجامش كاملة بسبب تلف الكثير من الألواح الطينية وكسر بعضها عند اكتشافها، ومع ذلك فإن ما تبقى منها يقدم فكرة شاملة عن الملحمة الدينية ويتيح لنا فرصة دراسة تأثيراتها على الحضارات المتعاقبة .

كان السومريون يؤمنون بتعدد الآلهة مثل باقي الشعوب، لكن البداية كانت بتقديس الإلهة الأنثى التي لا بداية لها ولا نهاية ،

إنها أزلية ، كانت الإلهة الأنثى تسمى "نمو"، إنها إلهة المياه الأولى، منها انبثقت الحياة، لقد خلقت كل الأشياء.
كان السومريون يحتاجون الماء كثيرا، بفضله بنوا حضارتهم التي قامت على زراعة الحبوب ، فجعلوا من الماء جوهر الخالق والمخلوق ، بدونه لا يمكن أن تتحقق الحياة .
أنجبت إلهة المياه "نمو" ابنًا ذكرا يحمل اسم "آن"، ومنه ستخلق السماء ، ثم أنجبت الإله الانثى واسمها "كي"، ومنها ستخلق الأرض. لم تكن الآلهة منفصلة عن بعضها البعض .
كان الإله " إن" ملتصقا بالإلهة "كي" ونتيجة الالتصاق الشديد بينهما سرى العشق بينهما، فالزواج والتزاوج والإنجاب ، لقد أنجبا إله جديدا قويا وجميلا حمل اسم "أنليل"، وهو إله الهواء، وبما أنه إله يأبى الثبات ويعشق الحركة فقد احتاج إلى فضاء واسع لا تحده حدود ، فكر"أنليل" في فصل أمه عن أبيه ،رفع "آن" إلى الأعلى لتتكون السماء، وأنزل "كي" إلى الأسفل لتتكون الأرض. واستمر "أنليل" في فصل الأرض والسماء حتى استقرا على الوضع الحالي .
بعد ان فصل السماء عن الأرض ، وجد "إنليل" نفسه يعيش وسط الظلمة الحالكة ، فقرر أن ينجب إلهاً جديدا يضيء ليله، فكان "أنانا " إله القمر الذي أنجبه من علاقة غير شرعية مع " أتو" إلهة الشمس. رغم اهتمام الملحمة بقصة الخلق ، إلا أنها لم تكن دقيقة ،لم تذكر كل الآلهة التي كانت تشغل السومريين الذين استطاعوا أن يملأوا كل الفجوات ، بخلق الآلهة التي يحتاجونها في حياتهم المركبة والمعقدة ، جاء في الملحمة الأبيات التالية :
في جبل السماء والأرض

أنجب آن أتباعه الأنوناكي
وأنليل الذي أخرج البذور من الأرض
وأراد أن يبعد السماء عن الأرض
وأراد أن يبعد الأرض عن السماء
بعد أن تم استكمال خلق الكون، وإنشاء جميع مكونات الحياة، أحست الآلهة بالتعب، كانت عملية الخلق شاقة ومتعبة ، احتاجوا إلى من يسهر على خدمتهم ورعايتهم ، احتاجوا إلى من يقدم لهم القرابين والهدايا، وواجب العبادة والطاعة والولاء ، وهكذا بدأت الآلهة تفكر بجدية في خلق إنسان يحمل عنها كل الأعباء التي لم تعد قادرة على حملها.
تضم ملحمة جلجامش سردًا مفصلًا عن المادة التي استعملتها الآلهة لخلق البشر، كما تحدثت بتفصيل دقيق عن عملية الخلق نفسها . جاء في الملحمة أن الآلهة مزجت الماء والطين لتشكل أول إنسان على هيئة الآلهة ، للتعبير عن التقدير الذي يحظى به هذا المخلوق الجديد . كان الإله إنكي هو المشرف على عملية الخلق بناءً على توجيهات والدته نمو. جاء في الملحمة أثناء وصف عملية خلق الإنسان :
من الأسفل، أعطني الأواني الفخارية
فالطين يخلط والطين يعجن
في يدي الصناع الماهرين
نضيف إليه قوة الآلهة
عندما يأخذ الشكل الأولى
ويُصبح الإنسان كما ترغب
نضيف إليه قوة الآلهة
ليُصبح نسخة منا، أقل قدرة

في عينيك تنبض الحياة
من طين الأرض انبثقت
كالآلهة، ولكن بقلب مرتجل
في الحقيقة تعددت الحكايات السومرية التي تناولت حدث خلق الإنسان، كلها تحفل بمجموعة واسعة من المفاهيم الميثولوجية حول أصل الإنسان ونشأته. ولكن أشهر هذه الحكايات هي حكاية "إنكي ونمّو وننماخ وطين الأبسو" التي تتداخل فيها تأثيرات طبيعية واجتماعية وثقافية ،وهذا التصور هوما يعرف باسم الأنثروبوغونيا.
الأنثروبوغونيا مصطلح يستخدم في علم الأنثروبولوجيا، لوصف فرضية تفسيرية تشير إلى أن الإنسان تكوّن من خلال تأثيرات طبيعية واجتماعية متعددة على مر الزمن. إن تصور الأنثروبوغونيا يشير إلى أن البشرية ليست نتيجةً للعوامل الطبيعية فقط، مثل التطور البيولوجي والتغيرات الجيولوجية، ولكنها أيضًا تأثرت بتفاعلات اجتماعية وثقافية وبيئية ، ويستخدم هذا المفهوم للحديث عن أصل البشرية بشكل شمولي وعلمي يتجاوز التركيز على العوامل البيولوجية.
تروي حكاية "إنكي ونمّو وننماخ وطين الأبسو" ، قصة الآلهة الصغار، الذين يشكون من شدة الإرهاق نتيجة العمل الشاق الذي بذلوه أثناء خلق الكون ، فالتمسوا من الإله إنكي أن يخلصهم من معاناتهم بخلق كائن جديد يحمل عنهم بعض أعبائهم ، فقرر أن يخلق الإنسان بمساعدة والدته الإلهة نمّو ويمنحه شيئا من الحكمة.
تحكي الأسطورة أن إنكي أوكل عملية تشكيل الإنسان لسبع آلهة إناث ،وفي حفل إلهي كبير تم تقديم ستة أنواع بشرية،

غير أن إنكي رفضهم لأنه كانوا مشوهين ، لتفادي تكرار أخطاء الخلق ، قرر الإله إنكى أن يشرف بنفسه على عملية الخلق ، فطلب من الآلهة تشكيل مخلوق بشري سماه أدابا أو أدامو وهو اسم قريب من آدم المذكور في كل قصص الخلق الإبراهيمية : آدامو هو الإنسان الأول الذي شكلته الآلهة من طين الأرض ثم نفخ فيه إنكى من روحه حينما مزج الطين بلعابه ، كما منحه الحكمة والمعرفة التي يحتاجها في حياته ، كل هذه العمليات أو الأحداث تذكرنا بتفاصيل قصة الخلق في الديانات التوحيدية.

تتناول الأساطير السومرية العديد من القصص حول أدابا أو أدامو ومغامراته وتفاعله مع الآلهة الأخرى والمخلوقات الأسطورية . في هذه القصص الأسطورية تُعرض الكثير من المفاهيم والتصورات التي سنصادفها في ثقافات الحضارات ما بعد الحضارة السومرية ،مثل الخلق والحكمة والخطيئة والعقاب والرغبة الإلهية في التواصل مع البشر .

ما يثر الانتباه في أسطورة الخلق السومرية ، أننا نصادف الكثير من قصص الخلق التي قدمت تفسيرات أحيانا مختلفة لحدث خلق الإنسان ، وقد نجدها تعبر أحيانا عن منافسة بين إلهين أو أكثر في عملية الخلق ، فقد تنافس كل من أنكى وننماخ على خلق الإنسان والتحكم في مصيره، ولكن رغم الاختلاف في القصتين إلا أنهما يتقاطعان في ذكر المادة التي شكل منها أول مخلوق ، كل القصص تحدثت عن الطين المستخرج من أعماق نهر "الأبسو".

نهر الأبسو هو أحد أهم الأنهار التاريخية في الشرق الأوسط. يعتبر واحدًا من نهري دجلة والفرات اللذين يجتمعان لتشكيل

نظام نهري مشترك في جنوب العراق، ينبع النهر من شرق تركيا ويمتد عبر سوريا والعراق قبل أن يصب في الخليج العربي. تحكي قصص الخلق أنه تم تشكيل الإنسانُ على هيئة الالهة ، من طين مقدس أخرج من المياه العميقة لنهر الأبسو، ونفخت الآلهة فيه الروح .

بعد الانتهاء من عملية الخلق، وتكليف الإنسان بتحمل مسؤوليات عديدة ، بدأ هو الآخر يشعر بالتعب والإرهاق والملل والإحساس بالظلم نتيجة علاقات الاستغلال التي أصبحت تربطه بالآلهة الفاسدة من جانب ، وبالطبقة الغنية المسيطرة على وسائل الإنتاج من جانب آخر .

نتيجة انتشار العلاقات القائمة على الظلم في المجتمع السومري، أصبح النظام الاجتماعي والكوني مهدد بالدمار ، لذا سيتدخل العقلاء والحكماء ليقدموا التماسا إلى كبير الآلهة "إنليل" يطلبون منه التدخل العاجل لتطهيرالأرض من شرورها ، وهكذا سيبدأ فصل جديد من فصول علاقة البشر بالدين .

## 3- الطوفان السومري ، العقاب وإعادة الخلق

قبل آلاف السنين على ميلاد المسيح، تناقلت الحضارات والثقافات والمعتقدات ، قصةً تحكي عن طوفانٍ عظيمٍ اجتاح العالم، وأكدت الأبحاث العلمية الحديثة ، وقوع طوفانٍ عظيمٍ قبل 12 ألف سنة على الميلاد، نجم عن ارتفاع درجة حرارة الأرض وذوبان الجليد، هناك أدلة أركيولوجية تعود إلى تلك الفترة تثبت أن قصة الطوفان تم تداولها في مناطقٍ متباعدة ومتنوعة من العالم، وجدت أدلة على وقوعه في العراق والمكسيك والهند والفيليبين وأندونيسيا .

أشهر حكايات الطوفان هي تلك التي ظهرت في منطقة بلاد الرافدين وسوريا، تداولها السومريون والبابليون والآشوريون ، وانتقلت بعد ذلك إلى الكتب الدينية المتأخرة كالتوراة والإنجيل والقرآن .

لم تختلف أحداث قصة الطوفان في جميع الثقافات والحضارات المعنية ،كما وردت نفس الأحداث في الديانات الإبراهيمية : اليهودية والمسيحية والإسلام.

تعود أقدم حكاية عن الطوفان في منطقة الشرق الأوسط إلى عهد الحضارة السومرية القديمة، وتعد أسطورة الطوفان السومرية واحدة من أقدم الأساطير التي عرفها الإنسان. جاء في هذه الأسطورة ، إن الإله السومري "إنكي" أراد أن يعاقب البشر بسبب خطاياهم وشرورهم ،فقرر أن يرسل عليهم طوفانا مدمرا .

تشير الأسطورة إلى أن إنكي كان إلهًا حكيمًا ومتفهمًا، وليتجنب القضاء على الحياة التي خلقها ، حذر بعض البشر من العواقب المدمرة لهذا الطوفان ، واختار شخصًا صالحا أوكل له مهمة إنقاذ بعض الكائنات الحية . أوحى الإله إنكي لهذا الشخص ببناء سفينة بمواصفات وقياسات دقيقة ، ليحمل عليها بعض البشر الصالحين وزوجًا من كل نوع من أنواع الحيوانات.

تمثل هذه الأحداث التي تحيل على النص الأول من أسطورة الطوفان النواة الأساسية لجميع حكايات الطوفان التي ظهرت في منطقة بلاد الرافدين ، وقد تم تدوين تفاصيل الأسطورة في ملحمة تُعرف باسم "ملحمة أتراحيسس".

ارتبطت قصة الطوفان بظروف الحياة ببلاد الرافدين القائمة على بنية اجتماعية طبقية أفرزها نمط الإنتاج الزراعي اختلطت فيه الآلهة بالبشر ، وتتوزع فيه الملكية الخاصة وأساليب التواصل وأشكال الاستغلال حسب إرادة الآلهة التي هي إرادة الطبقة المهيمنة.

بعد الانتهاء من عملية خلق الكون ، أمرت الآلهة الكبيرة الآلهة الصغيرة بحفر الأخدودين الكبيرين الذين سيصبحان "دجلة والفرات"، ويساهمان في بناء الحضارة السومرية وازدهار الزراعة وقيام دولة قوية ، عندما أنهت الآلهة الصغيرة من مهمتها الشاقة ، شعرت بتعب شديد ، فالتمست من الآلهة الكبيرة ان تخفف عنها مشاق مسؤولياتها .

رفقا بالآلهة الصغيرة المتعبة ، اقترح إله الحكمة " إنكي" على رب الآلهة "أنليل" فكرة خلق كائن حي جديد ، يحملونه مسؤولية القيام بجميع المهام على الأرض بدلاً من الآلهة

الصغيرة ، فتطوع الإله "كيشتو" الملقب بإله الضمير ليضطلع بعملية خلق الكائن الجديد " الإنسان " وقدم نفسه فداء لهذه المهمة ، كان " كيتشو" أول كبش فداء في التاريخ البشري قبل المسيح بآلاف السنين ، قامت الإلهة الأم "نمو"، بإعداد خليط غريبة امتزج فيها لحم ودم ومخ إله الضمير "كيتشو" بالطين ، بهذا الخليط تم تشكيل مجموعة بشرية تكونت من سبعة ذكور وسبع إناث. بعد خلق هذه المجموعة البشرية ، شعرت الآلهة الشابة بالارتياح ،كما شعرت الآلهة الكبار بنفس الارتياح ، لكنها لم تنتبه إلى خاصية التوالد التي خلقت مع المجموعة البشرية الأولى .

تكاثر عدد المجموعة البشرية الأولى ، ارتفعت كثافتهم وارتفع ضجيجهم وكثرت فوضاهم ما أدى إلى انزعاج الآلهة كان كبير الآلهة " أنليل " منزعجا كثيرا من ضجيج البشر ، جمع الآلهة ليتدارس معهم الوضع ، لعلهم يجدون حلا يمكنهم من استرجاع راحتهم ، بعد مناقشات مستفيضة، عبروا فيها عن ندمهم على خلق البشر الفاسدين ، قرروا أن يتخذوا إجراءات عملية على وجه السرعة ، اجمعوا على فكرة إبادة البشر بواسطة الأوبئة والأمراض للتخلص نهائيا من مشاكلهم: سلطوا الطاعون على البشر وكان لانتشاره نتائج كارثية ، مات الآلاف ، لكن الملك الحكيم أتراحيسس رقت أحاسيسه ولم يطق مشاهدة ما يحدث للبشر ، فقرر التدخل لإنقاذهم من الانقراض ،طلب النجدة من الإله "آيا" الذي رق هو الآخر لحال البشر ، فنصح أتراحيسس بأن يدعو البشر إلى كثرة الصلاة ،وتقديم القرابين والأضاحي لنامتار إله الطاعون.

بعد مرور أكثر من ألف عام على رفع الطاعون عن الأرض ، عاش البشر فيها رخاء وطمأنينة لم يعهدوهما ، انطلقت من جديد موجة الإنجاب والتوالد ما أدى إلى ارتفاع مهول في عدد السكان وعودة الفوضى والضجيج .
ضجرت الآلهة من جديد ، واجتمعت على استعجال للبحث عن حلول جديدة تخلصهم من مشاكل البشر، فقررت معاقبتهم مرة أخرى، أمرت إله المطر "حدد" بمنع سقوط المطر، وطلبت من إلهة الحبوب "نيسابا" أن تمنع نمو السنابل ليموت البشر من شدة الجوع.
مرة أخرى تدخل الرجل الطيب "أتراحيسس" وطلب النجدة من الإله "أيا" فنصحه بدعوة البشر إلى الإكثار من الصلاة والتقرب من "حدد" إله المطر والصواعق والسحاب والرعد والخصوبة ، شعر إله المطر بالحرج فأطلق السحاب وهطلت الأمطار، لتعود الحياة إلى الحقول والمزارع ويكثر الزرع وتنضج الثمار ..
مرت أكثر من ألف سنة جديدة ، نسي فيها البشر زمن المجاعة ،تضاعف عددهم من جديد وكثر ضجيجهم. غضب "إنليل" كبير الآلهة وقرر أن يكون حاسماً في تعامله مع البشر، فأمر بإصابة كل النساء بالعقم وسلط عليهم الجوع والأوبئة، لكن الإله الطيب "أيا" تدخل من جديد وأرسل كميات كبيرة من السمك إلى الأرض لإطعام كل البشر.
عندما علم كبير الآلهة بالأمر، انتابه غضب شديد واتخذ قرارين حاسمين وخطيرين ، قرر أن يُدمر البشرية بواسطة طوفان عظيم، وحذر كل الآلهة من مغبة التدخل لإنقاذ البشر.

لم يخالف الإله الطيب "أيا" أوامر كبير الآلهة هذه المرة ، لكن طيبوبته أوحت له بأن يتصل بالملك الحكيم "أتراحيسس" ليحذره من قرب حدوث الطوفان العظيم الذي سيقضي على الحياة كلها. لإنقاذ البشرية والحياة، أوصاه بضرورة صنع فلك كبير يتسع لزوج من كل حيوان وبعض البشر.

جمع "أتراحيسس" الحيوانات والبشر الصالحين ،وبمجرد ما أدخلهم إلى السفينة ،انطلق الطوفان يغمر كل الأرجاء بأمواجه العاتية وسيوله المهولة التي جرفت الزرع والنسل ، كانت قوته مدمرة إلى درجة أن أصاب الآلهة الرعب فسرى في أوصالها إحساس الخوف من آثاره المدمرة ،خافت على مصيرها بعد هلاك كل الكائنات ،أدركت أنها إن فقدت البشر لن تجد من يسهر على خدمتها ومن يصلي ويقدم لها القرابين ، كما أحست بالجوع والندم . كانت ستة أيام كافية ليقضي الطوفان على كل مظاهر الحياة ،ويقضي على الجنس البشري وكل الكائنات الحية ، باستثناء الملك الحكيم "آترا حيسس" ومن كان معه على الفلك.

استمر الطوفان المدمر القاتل ستة أيام بلياليها ، في اليوم السابع أرسل "آترا حيسس" حمامة تبحث عن اليابسة، لكنها عادت دون أن تحمل بشارة انحسار المياه، ثم أرسل سنونو، لكنه عاد أيضاً دون أن يجد اليابسة ، في المرة الثالثة أرسل غراباً، ولم يعد، وهكذا عرف "آترا حيسس" أن المياه قد انحسرت ، حط الملك الطيب الفلك على اليابسة ، وبالضبط على جبل "نصير".

بمجرد ما خرج "أتراحيسس" من الفلك وحط قدميه على اليابسة، قدم قربانًا للآلهة الجائعة، غضب "انليل" كبير الآلهة

لنجاة الفلك، بعد أن علم بأنّ "أيا" هو الذي يملك ما يكفي من الجرأة والذكاء لإيجاد مخرج لإنقاذ البشر. أقرّ "أيا" بمساهمته غير المباشرة في إنقاذ البشر، واقترح على"إنليل " حلاً جديدًا لمشكلة الاكتظاظ والفوضى التي يحدثها البشر على الأرض ، اقترح عليه أن يخلق مخلوقات جديدة تختلف عن طبيعة الإنسان ، نصحه بأن يصنع مخلوقات قليلة الخصوبة ،نساء لا يتمتعن كلهن بالقدرة على الإنجاب، كما نصحه بخلق العفاريت الأشرار ،ونشرها في الأرض ، مهمتهم إجهاض الحوامل واختطاف المواليد الجدد والرضّع ، كما أقنعه بأن يكون أكثر إنسانية في تعامله مع البشر لينال حبهم واحترامهم. أنصت كبير الآلهة لأيا الإله الطيب وأعاد خلق إنسان جديد ،ونسل جديد من البشر، كما أسس لعلاقة جديدة تقوم على الاحترام والتقديس والتبجيل ، وأمر ببناء معابد جديدة ، يمارس فيها البشر صلواتهم وطقوسهم التعبدية ، ويطلبون ما يعجزون على تحقيقه في حياتهم اليومية .

في نهاية الأسطورة ، يطلب الملك الحكيم "أتراحيسس" من الإله "أيا" السماح له بالصعود إلى السماء ليعيش بعيداً عن الإنسان الجديد .

لم تنته أسطورة الطوفان السومرية بدمار البشرية ونهاية الحياة، وإنما انتهت بخلق إنسان جديد له الكثير من الأحلام والاحتياجات ، لا يحتج صابر قنوع مؤمن بقدره ومصيره، يخلص في حبه للآلهة

## 4- أسطورة الخلق البابلية

تعكس أسطورة الخلق البابلية التي وردت في الملحمة الشهيرة "إينوما إيليش" أو "عندما كانت الأعالي" ظهور الدين بشكله الكامل والمتعدد في بابل، كما تعكس التغيرات العميقة التي عرفتها البشرية .

شهدت الحياة البشرية في تلك الحقبة تحولًا مهما وخطيرا لم تتوقف انعكاساته إلى يومنا هذا ، إنه التحول من مجتمع الصيد إلى مجتمع الزراعة، واستقرار الإنسان العاقل (Homo sapiens) في مناطق قريبة من مصدر غذائه الجديد.

بفضل استعداد الإنسان العاقل على العمل الجماعي والتعاون داخل مجموعات ، استطاع أن يبني علاقة جديدة مع محيطه البيئي والطبيعي ، وأنتج قيما جديدة تعطي بعدا جديدا للعمل والتواصل، بعيدًا عن الغرائز الأساسية التي تتحكم في الكائنات الحية الأخرى.

بسبب سيطرة الإنسان العاقل على الأرض، انقرض الجنس البشري المعروف باسم نياندرتال Neandertal الذي يمثل مجموعة من البشر المنقرضين عاشوا في فترة ما قبل التاريخ، يعتبرون جزءًا من فصيلة الإنسان البدائي، وترجع تقديرات تواجدهم إلى ما بين 400,000 إلى 40,000 سنة مضت. يتقاطع نياندرتال مع الإنسان العاقل في التطور الجيني، ويتميز ببنية جسمية متينة وعضلات قوية. تشير الأدلة الأحفورية والجينية إلى أن النياندرتال كان يتفاعل مع

البيئة بشكل مشابه للإنسان الحديث، كان يستخدم الأدوات ويعيش في مجموعات اجتماعية، يملك ثقافة وتقاليد خاصة به ، كما رصد العلماء مؤخرا وجود جينات في الإنسان الحالي تعود لإنسان نياندرتال .

على الرغم من أن النياندرتال عاش لمئات الآلاف من السنين في ظروف مناخية قاسية ،إلا أنه انقرض كما انقرضت معظم الكائنات الحية الكبيرة الحجم ، ليفسح المجال للإنسان العاقل الذي فرض هيمنته الكلية على الأرض ، ولم يتوقف لحد الآن عن تأكيد هيمنته ،بعد أن استثمر ثورة تحرير يديه لتصبحا امتدادا لعقله، بتحرير يديه تحرر خياله، ابتكر واخترع الزراعة والتجارة والمال وحقوق الإنسان، وخلق كذلك الآلهة والقوانين ، والجنة والنار .

بفضل التجارب والقدرات والخبرات والمعرفة التي راكمها ، أصبح الإنسان العاقل ، الكائن الحي الوحيد القادر على التأقلم مع كل الظروف والوضعيات، ليعيش في بيئات ومجتمعات لا يتوقف تطورها ، تعتمد على كل الأنظمة التي عرفها ، مثل الأديان والأنظمة السياسية والشبكات التجارية فأبان عن قدرته الفريدة على تصور الأفكار والخطط العقلية . استثمر الإنسان العاقل قدراته الهائلة في تطوير نمط حياته منذ الثورة التي حدثت في نمط إنتاجه ،أي مند أن تحول من نظام الصيد والجني إلى نظام الزراعة ، لكن هذا التحول أدى إلى ارتفاع نسبة النمو الديمغرافي وتزايد الحاجة إلى وفرة الإنتاج ، فكان لابد وأن يطور أساليب فكره وعمله ، تعلم كيف ينتقي ويطور الحبوب ويدجن الحيوانات ليستفيد من لحمها وألبانها وصوفها وخدماتها . مع كل اختياراته الجديدة شهد العمل نفسه تحولا

كبيرا من حيث طبيعته والجهد الذي يتطلبه والسعرات الحرارية اللازم لتحقيقه. لقد تعقدت الحياة، واحتاجت إلى قوانين وتشريعات تضبطها وتنظمها ، وبدأت تطرح أسئلة وجودية جديدة احتاجت إلى أجوبة مطمئنة ،فكان الدين في الموعد ليطرح حلولا لكل الإشكالات .

على الرغم من وجود الصيغ الدينية وإن في شكلها الطبيعي البدائي في مجتمعات الصيد والجني ،وعلى الرغم من أن الدين كان موجودًا قبل المجتمع الزراعي، إلا أنه شهد تطورا وتعقيدا في المجتمعات الزراعية الجديدة ، ليعبر عن الصراعات الجديدة التي أفرزتها تشريعات وقوانين الملكية الخاصة والتمايز الطبقي والاجتماعي، وهذا ما سنكتشفه من خلال قراءة أسطورة الخلق في الملحمة البابلية.

كانت الأيام الثلاثة عشر الأولى من شهر إبريل تشهد في بابل العتيقة الاحتفال برأس السنة الجديدة في معبد الإله مردوخ ،وهو معبد قديم يعود إلى العصور البابلية القديمة في الشرق الأوسط. مردوخ هو إله بابل ومؤسس العاصمة البابلية القديمة وباني معبدها الشهير ، يُعتقد أن هذا المعبد كان واحدًا من أكبر المعابد في العالم القديم.

في مراسيم الاحتفال برأس السنة كان على الملك البابلي أن يظهر خضوعه وتواضعه أمام الإله مردوخ ، كانت طقوس الخضوع تفرض عليه أن يجلس وحده بعد أن يُجَرِّده الكهنة من شارات الملك ، ثم يقترب منه رئيس الكهنة ويجذبه من أذنه ويصفعه على وجهه، ويُجبره على السجود للإله ويتبرأ من خطاياه، ثم يعود الكاهن إلى جذب الملك مرة أخرى من

أنفه وصفعه قبل أن يُعيد إليه شارات الملك، إذا دمعت عينا الملك ،ذلك يعد علامة على رضا الإله وتجاوز كل خطاياه.
خلال احتفالات رأس السنة البابلية كان البابليون يقومون بتمثيل قصة مردوخ وملحمة الخلق المعروفة باسم "إينوماإيليش" أو "عندما في الأعالي"، وهي تتألف من ألف بيت، يُعتقد أنها كتبت في الألفية الثانية قبل الميلاد.
تحكي الأسطورة قصة الخلق وتقول : "في البدء لم يكن شيئ، في "الأعالي" لم تكن السماء، وفي "الأسفل" لم تكن الأرض".
كانت الآلهة تعيش في اللاشيء : "أبسو" إله المياه العذبة وزوجته "تيامات" إلهة المياه المالحة، و"أيا" إله الحكمة والدهاء، وممو إله الضباب ووزير أبسو.
اتحد أبسو وتيامات وأنجبا آلهة صغيرة، توالدت وتكاثرت، وعاشت في جوف الأم تيامات ، لكنها بدأت تزعج أباها إبسو بسبب كثرة حركتها وضجيجها، فقرر التخلص منها. لم يحسم أبسو أمر التخلص من صغاره إلا بعد أن اجتمع مع زوجته ووزيره ،أخبرهم برغبته في التخلص من أبنائه لكن تيامات رفضت وعاتبت زوجها قائلة له: "لماذا ندمر ما أنعمنا عليهم بالحياة؟" استجاب ممو لرغبة سيده وقال له : "نعم يا أبسو دمِّرهم حتى تستريح في نهارك وتنعم بنوم مريح ليلاً." لكن عندما علم أيا إله الحكمة بالمؤامرة، أراد أن يحبط مخطط أبسو، فقام بوضع تعويذة حول الآلهة الصغيرة لحمايتها، ثم ألقى بتعويذة أخرى على أبسو ليدخل في نوم عميق ، بعد ذلك أخذ منه رموز قوته الإلهية: تاجه ونطاقه، ثم قتله، واعتقل ممو وكبله بالحبال ، وفوق جسد أبسو أنشأ لنفسه مسكنًا.

بعد مقتل أبسو أصبح أيا إلها للمياه والحكمة والدهاء وحول ممو إلى ضباب. أنجب أيا وُلدَا ذكرا سماه "مردوخ"، أرضعته أمه حليب الآلهة ومنحته كل مظاهر العظمة والمهابة، كانت قامة "مردوخ" تأسر القلوب، تتلألأ عيناه مثل البرق، تميز عن باقي الآلهة بالعنفوان واجتمعت فيه كل صفات الزعامة . كانت هيئة مردوخ الإلهية مختلفة عن الصورة البشرية الموجودة في المعابد، كان يظهر بحجم هائل ، يشع منه نور غريب، له أربعة آذان وأربعة عيون. أعجب به أبوه أيا ، فخلق الرياح الأربعة وجعلها تخضع لإرادته منذ صباه.

علمت تيامات بموت زوجها أبسو وميلاد مردوخ فغضبت غضبا شديدا، تأججت داخلها نار الانتقام وعزمت على إبادة كل الآلهة المتآمرة على زوجها. استعدت تيامات لخوض معركتها المصيرية ، خلقت وحوشا ضارية ،حصنت جيوشها بالتنين العملاق وأفعى البحر الضخمة وأسود ذات سبعة رؤوس، جهزتها بقوة هائلة لمقاتلة الآلهة المتمردة، كما اختارت زعيمًا لجيوشها ووحوشها يُدعى كينغو ، في نفس الوقت كانت الآلهة الشابة تستعد لمواجهة تيامات بجيوشها الجبارة ، وبما أن الإله مردوخ كان يتمتع بقوة هائلة ويملك سلطة التحكم في الرياح ، طلبت منه الآلهة الشابة أن يتولى قيادة الجيوش ، قبل عرضهم لكنه اشترط عليهم أن يسلموه السلطة والسيادة المطلقة عليهم وعلى جيوشهم .

تربع مردوخ على عرشي السلطة والألوهية معا ،ارتدى الرداء الملكي وحمل الصولجان وبيده اليمنى حمل الهراوة ،وعلق قوسه وسهامه الحادة على جنبه، كما جعل البرق يتقدم

عربته الملكية ، وطلى جسده بالنار الملتهبة وأمر الرياح بأن تكون مرعبة شديدة وشيطانية تحدث زوابع وأعاصير وعواصف لا ترحم العدو ، وأمرها بأن تحمل شبكته العملاقة ليصطاد تيامات . اعتلى "مردوخ" عربة حربية تجرها أربعة وحوش، كانت تتقدمه أمطار طوفانية ، وضع على يده ترياقًا يقيه سموم وحوش الأعداء، و حط بين شفتيه طلسمًا يمنحه القدرة على إطلاق اللعنات الرهيبة على تيامات ووحوشها.
أمام قوة "مردوخ" تراجع كينغو قائد جيوش تيامات، ورفض مواجهته ، فتقدمت تيامات لنزاله ، بدأت المبارزة بتبادل الإهانات واللعنات ،لكن "مردوخ" كان أكثر ذكاء من تايمات جعلها تفقد سيطرتها على نفسها بعد أن ارتفعت حدة غضبها. كانت المبارزة قوية شرسة ،عنيفة وسريعة ،مكنت مردوخ من تنفيذ كل خططه الحربية ، حيث نشر شبكته واحتوى تيامات داخلها، وعندما فتحت فمها لابتلاعه ، دفعته الرياح الشيطانية بعيدا عنها ،واتجهت نحوها حيث ملأت جوفها ونفخت بطنها ، فسقطت داخل شبكته ، ثم أطلق مردوخ سهمًا من سهامه، اخترق أعماقها وغمر أحشاءها وشطر قلبها. سقطت تيامات أمامه جثة هامدة ، ألقى بها على الأرض ، وصعد فوقها للتعبيرعن انتصاره. بعد هذه النهاية المأساوية للإلهة الأنثى دب الرعب في أوصال الآلهة الكبيرة الموالية لتيامات ،همت بالفرار ، لكن مردوخ كان أسرع منها ،ألقى عليها شبكته ،أسرها وربط أطرافها، كما قيد كينغو وأخذ ألواح الأقدار منه، ثم وضع عليها خاتمه وعلقها على صدره.
كان هذا الانتصار العظيم الذي حققه مردوخ على الإلهة الأم تيامات ، إعلانا عن الصراع الدامي بين الآلهة وبداية خلق

العالم ، لقد وقف الإله الذكر المنتصر متأملا في جسد الإلهة الأنثى ، شقه إلى نصفين، رفع النصف الأول إلى الأعلى وصنع منه السماء، بينما بسط النصف الثاني في الأسفل ليصنع منه الأرض.

بعد أن خلق مردوخ الأرض والسماء ،خلق النجوم والكواكب ، وضعها في السماء وقسمها على الآلهة التي حاربت إلى جانبه ، ثم خلق الجبال والمرتفعات و خلق دجلة والفرات، كما أعاد تنظيم الآلهة وصنفها إلى صنفين : الآلهة الكبار وجعل السماء مستقرا لها والآلهة الصغار، وجعل الأرض مستقرا لها وكلفها بحراستها . بعد أن خلق الكون واستقر الأمن ، أحست الآلهة الصغيرة بالضجر والتعب نتيجة اضطلاعها بمهام كثيرة ، لم تعد قادرة على أدائها ، فتقدمت إلى مردوخ بملتمس تطلب فيه أن يعفيها من مهامها الأرضية ، لم يجد كبير الآلهة مانعا ، فطلب إحضار كينغو من السجن ، وهو قائد جيوس تيامات المتمردة ، قام بتقطيع شراينه ليخرج كل دمه ، ثم وضعه في إناء فخاري و مزج به الطين ومنه شكل أول إنسان.

بعد أن تم خلق الكون من طرف أبسو وتايمات ، وبعد الصراع الدامي بين الآلهة ، الذي انتهى بإسقاط الإله الأنثى وتنصيب الإله الذكر، وبعد أن تم خلق الإنسان ، احتفلت الآلهة بمردوخ العظيم الذي بادر بتشييد بابل وجعلها عاصمة العراق القديم ، ثم أمر الإنسان بتعميرها وبناء معبد ضخم يعبد فيه وتقدم له فيه القرابين للتعبير عن آيات الحمد والشكر وتخليد ذكرى انتصاره على الفوضى ،وتشكيل أول إنسان امتزجت فيه دماء الآلهة بالطين .

تنتهي ملحمة " إينوماإيليش" ، بتقديم آيات الولاء والطاعة من طرف الآلهة لمردوخ ،وهي تردد أسماءه الخمسين المقدسة التي تمثل صفاته الثابتة المطلقة .

سيجد كل من درس هذه الملحمة أنها تمثل مغامرة العقل البشري الأولى ، وقد أشار إلى هذا الاستنتاج الباحث السوري فراس السواح وأفرد لها كتابا حمل عنوان "مغامرة العقل الأولى"، حيث أشار إلى أن الملحمة تمثل "مغامرة فذة"، لأنها لم تفترض فكرة الخلق من العدم، بل اعتبرت الماء عنصرًا أساسيًا لبدء عملية الخلق، وهذا ما يعكس عمق الفكر البابلي القديم ، وتطور تصوره لعملية الخلق ،ويشير الباحث السوري فراس السواح، إلى أنه يمكن قراءة الأسطورة على ضوء تحولات مجتمعية مهمة ، فهي تعلن عن نهاية النظام الأميسي وبداية النظام الأبيسي، أي إنزال الأنثى من عرش الهيمنة ورفع الذكر ومنحه السلطة المطلقة ، وهكذا تأخذ هذه الملحمة بعدا ثقافيا وسياسيا واجتماعيا، وتؤرخ لبداية ظهور الحكم المطلق وتقديس الحاكم ورفعه إلى درجة الألوهية وظهور الطقوس التعبدية وتوظيف الدين كأداة لبسط الهيمنة والاستغلال ، كما تعبر عن الصراع الدائم بين الإنسان والطبيعة من أجل البقاء ،كانت المياه تشكل تهديدًا حقيقيًا للحياة البشرية ،كانت تهدد نمط الإنتاج الزراعي والتبادل التجاري ، من خلال الوفرة المبالغ فيها أحيانا ، والندرة الخطيرة أحيانا كثيرة ،كما مثلت الملحمة مرجعا تاريخيا مهما ، فهي تشير في مضامينها وصراعاتها إلى الحروب التي سبقت توحيد المدن السومرية تحت حكم بابل، وتعزيز سلطتها وملكها بموجب الإرادة الإلهية ، كما تعكس رؤية فلسفية

ميزت البابليين يمكن أن نلخصها في المقولة التالية : "الحياة مقابل الحياة"، وهي مقولة تحيل على مفهوم نجده يتكرر في العديد من الموروثات الأسطورية الشرقية، حيث تكون التضحية بحياة سببا لميلاد حياة أخرى، وتُعَدُّ تيامات التي تفقد حياتها مقابل حياة العالم مثالًا على تلك الرؤية الفلسفية .

كما تتحدث الأسطورة عن صراع النظام ضد الفوضى، مثلت الآلهة التي كانت تعيش في جوف تيامات نمطا تقليديا للفوضى ، بينما سيُمثل مردوخ النظام الذي سيفرض نفسه على العالم ، وهذا ما تحقق عندما انتصر على تيامات واستولى على كل السلط السماوية والأرضية ،فأنشأ نظام الحكم الملكي المستند على الإرادة الإلهية، كما بنى المدن وسن القوانين واخترع التوقيت والتأريخ ووزع المهام.

يُصنف دارسو الأساطير "إينوما إيليش" ،كواحدة من أجمل النصوص التي وصلتنا من العصر القديم، نظراً لخصوبة خيالها ودقة وصفها وتماسك سردها ، وهي تتميز فعلا بدقة وصف الكائنات المادية والمعاني الروحية، وسعة الخيال والقدرة الإبداعية العالية وارتباطها المنطقي بالتاريخ الدنيوي في كل مرحلة من مراحل الأسطورة ..

## 5- أسطورة الخلق الفرعونية

تعد أرض مصر الفرعونية من أقدم أراضي العالم التي فلسف فيها الإنسان عملية الخلق والموت ، أرض مصر الفرعونية هي مهد الفلسفة ببعدها الوجودي والميتافيزيقي.
بنى المصريون حضارةً فريدةً من نوعها ،علمية واجتماعية وثقافية وسياسية ، حضر فيها الدين بشكل جديد ووجه حياة المصري القديم . كان الدين بالنسبة للمصريين القدماء أساس كلّ فعلٍ في الحياة، وهو المؤطر لفلسفة خلودهم بعد الموت .
يعتبر الدين في مصر القديمة من أهم التجارب البشرية لفهم تكوين الكون والإنسان ، ونظرا لعمقها أنتجت هذه التجربة الحكمة والفلسفة ، ونشأت عنها فكرة الخلود ، كما مثّلت تجربة بشرية جادة للاحتفاء بالموت بصفته بوابةً الخلود وليس مجرد نهاية عدمية، وعمقت الشعور بالحرية والتميّز الذي لا يوجد إلا عند البشر بحكم أنهم يملكون المشاعر والوعي خلاف الكائنات الأخرى .
كان لدى قدماء المصريين تصور دوري للزمن حيث رأوا أنه دورة من التسلسلات المتتابعة التي تكرر نفسها إلى أجل غير مسمى . يتعارض هذا التصور مع التمثيل الخطي للزمن السائد في الغرب والذي يُرمز إليه عادة بسهم مستقيم. كان للمصريين تصورهم الخاص للزمن نتج عن تتبعهم لحركة الليل والنهار، تعاقب فصول السنة والحياة والموت. كل هذه المظاهر تشهد على الطبيعة الدورية للكون . لقد اهتم المصريون القدامى بفكرة الدورة الزمنية أو دورة الوقت ،

وجسدوها بقوة في هندسة تصورهم لطريق الخلود، وهكذا تمثلت عندهم الدورة الزمنية هندسيا على شكل الدائرة وليس السهم ، وهو الشكل الذي يستخدم تقليديا للدلالة على التكرار الأبدي والذي يمكن أن نمثل له بأسطورة سيزيف الإغريقية.
وبما أن الفراعنة آمنوا بفكرة الخلود فقد وجدوا في الدورة الزمنية أحسن تعبير عن الإسقاط الزمني للأبدية ، وهكذا ستلخص الدائرة الزمنية الطريقة التي يتجلى ويتحقق بواسطتها الخلود الذي تصوره الفراعنة.
من الصعب أن يتحقق الخلود في عالم المادة ،لأن كل ما هو مادي لا يصمد أمام قانون التلاشي. لا يمكن أن يتحقق الخلود للمادة ، والجسد مجرد مادة ،فكيف سيحقق له المصريون الخلود ؟ إنه أول إشكال ببعده الفلسفي واجهه المصريون القدامى ، إلا أنهم وجدوا الحل في الاعتقاد بوجود الروح في الجسد فقالوا بخلودها ، وجعلوها تخرج من الجسد مباشرة بعد الموت ، وتسافر إلى عالم ميتافيزيقي لتخضع للحساب والمحاسبة أمام الإله "أوزوريس" ولكن ما مآل الجسد في هذه الرحلة ؟.
لتكتمل فكرة الخلد اهتم الفراعنة بالجسد لأنهم اعتبروه الوعاء الذي يحمل الروح في الدنيا وسيحملها بعد الموت مرة أخرى ، استنادا على هذه الرؤيا سيخترع الفراعنة " التحنيط". قدر المصريون القدامى الحياة وآمنوا بفكرة الخلود، قادهم هذا التصور إلى الاستعداد للموت وإعداد أجساد الموتى لاستقبال أرواحهم مرة أخرى بعد الموت، فكان التحنيط هو الوسيلة المثلى للحفاظ على الجسد لاستعادة الحياة

بعد الفناء. اعتبر المصريون القدامى الجسد المحنط وعاء يستوعب الروح مرة ثانية بعد الموت ، أما في غياب الجسد لا يمكن أن يتحقق الخلود ، لهذا السبب كانت طقوس الدفن وتحضير القبور مهمة في الثقافة المصرية القديمة .

وهم يؤسسون لفكرة الحساب والخلود واجه المصريون الكثير من الإشكاليات ذات طبيعة فيزيولوجية وفلسفية وجودية في نفس الوقت، لكنهم أوجدوا أجوبة لكل تساؤلاتهم ، تجاوزوا إشكالية تلاشي الجسد حينما اخترعوا التحنيط ، كما تجاوزوا إشكالية الخلود الذي يفرض تحكما في الزمن ، فكروا في الزمن الفلسفي القائم على التناوب والتمثيل الدوري للوقت بإعادة تشغيل الدورة الزمنية بشكل أزلي . إن فهم التمثيل الدوري للوقت بين قدماء المصريين لم يكن بأي حال من الأحوال اعتباطيا ، بل كان قائمًا على المراقبة الدقيقة للظواهر الفيزيائية والبيولوجية والفلكية. لاحظ الفراعنة أن دورة الأيام القائمة على أساس سرعة دوران الأرض تتناسب مع الدورة الكاملة لكوكبنا حول الشمس، ولاحظوا أن هذه الدورة هي المسؤولة عن الفصول الموسمية ، الدورة المنتجة للحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة والضوء والظلام وهي التي تؤثر على النظام البيئي والبيولوجي ، كما اهتموا بدورة أخرى ، وهي دورة القمر حول الأرض ورصدوا تأثيرها على الخصوبة والإباضة عند النساء .

إلى جانب هاتين الدورتين ، أشارت النصوص المصرية القديمة إلى دورة أخرى أكبر من كل الدورات الزمانية الأخرى ، دورة حاضرة في اللاوعي وهي التي سماها

المصري القديم دورة الدمار وتجديد الكون وهو ما نسميه اليوم نهاية العالم. أشارت النصوص المثبتة على المعابد والأهرامات إلى أن الكون سوف يتم تدميره بشكل دوري، ليعود إلى حالته الأولى أي حالة الفوضى التي وجدت قبل بدء عملية خلق الكون نفسه ، يقول إله الخلق "أمون" عن هذه الدورة : " سأدمر كل ما صنعته وسيصبح هذا البلد مرة أخرى في حالة ضبابية كما كان في مرحلته الأولى." ويضيف قائلا " أنا الأزلي ، سأبقى إلى الأبد ، واخترت "أوزوريس" ليبقى خالدا معي. ".وفق تصور المصريين القدامى ستتحقق الدورة الزمنية الكبرى لـنهاية العالم ويعود الكون إلى الفوضى البدائية أو الأصلية أو الأولية بإرادة ومشيئة الإله "أمون" ، ثم يعيد خلق الكون من جديد ، وهذا التصور تتقاسمه الكثير من الأساطير والديانات المتأخرة . يذكر أفلاطون في "كلمات سولون" وهو أحد حكماء الإغريق السبعة الذين يعود لهم الفضل في سن قوانين اجتماعية متقدمة بعد حرب خاضها الفقراء ضد طبقة الملاك وسمي بقانون سولون ، تضمن حق الملكية الفردية المحدودة، وحق الشعب في الإشراف على مؤسسات الدولة، وحق الجماعة في تشكيل وحدة لها قوانينها الخاصة التي تحكمها وتخضع لقانون الدولة العام. كان سولون على علم بأن الأرض عرفت العديد من الكوارث خلال تاريخها وأن تواتر هذه الكوارث كان يحدث بشكل دوري وهو يعكس الدورة العظيمة للدمار الكوني ،كما أشار إلى العديد من الزلازل والفيضانات التي أدت إلى انقراض العديد من الحضارات في الماضي ، وقد سبق أن عرفنا حديث الأسطورة السومارية عن الطوفان المدمر ،

ولكن ماذا يعرف الفراعنة عن هذه الدورة الكونية العظيمة التي ستدمر الكون ؟

اعتقد المصريون القدامى بدورة تدمير الكون وقاموا بعمليات حسابية تستند على الرياضيات والفيزياء أكدت لهم هذا الاعتقاد ، فقد حسبوا تغير محور دوران الأرض بدرجة واحدة كل 72 عامًا ووصلوا إلى أن الأفق السماوي سيكتمل في خمسة وعشرين ألفًا وتسعمائة وعشرين عامًا ،هذه المدة الزمنية تمثل دورة فلكية وعند اكتمالها يحصل الدمار الشامل ، الغريب أن الدورة الفلكية التي حسبها الفراعنة ، استدل عليها علميا في القرن الثامن عشر ،وعرفت باسم السنوات الأفلاطونية العظيمة تكريما لأفلاطون الذي كان من الأوائل الذين دعموا تصور الفراعنة لدورة تدمير الكون وإعادة خلقه.

لقد كانت معرفة المصريين القدامى متطورة في علم الفلك، مكنتهم من امتلاك تصور خاص بهم حول الوقت كتكرار لدورة زمنية يخضع لها كل الخلق.

من هنا نخلص إلى أن الديانة المصرية القديمة هي أول محاولةٍ عميقة لفهم تكوين الوجود والكون، وما تعدد الآلهة فيها إلا وسيلة لفهم هذا الوجود المعقد، ولم يكن هدفهم يتلخص في معرفة الإله فقط بل كانوا يطمحون إلى فهم سبب خلقه لهذا الكون، وهكذا سيرتبط الدين عندهم بالحكمة، ويؤدي إلى ظهور بوادر الفلسفة وعلم الأخلاق .

كان هاجس الخلود هو سرّ عظمة الحكّام المصريين القدامى ، كان الخلود يشغلهم أكثر مما يشغل الشعب ، كان التفاوت واضحا بين النخبة والعامة في التعامل مع فكرة الخلود ، ما

جعل الحياة الدينية للعامة غير واضحةً أو غير ذات مغزى محدد، لم تكن العامة تهتم بفكرة الخلود بحكم أنها كانت تعرف أن لا نصيب لها في تحقيقه ، النخبة التي تتوفر على إمكانيات الخلود ومستعدة لصرف أموال طائلة من أجل تحقيقه وهي الإمكانيات التي كان يتطلبها التحنيط والطقوس المصاحبة له ، ولكن تحت ضغط الرغبة في السفر إلى العالم الآخر للتمتع بالنعم الأزلية ستتطلع الفئات البسيطة إلى أحلام الخلود وتطالب بحقها فيها ، لهذا يرى السيد القمني أنّ عقيدة الخلود صنعت ثورة اجتماعية وأخلاقية في مصر القديمة انبثقت عنها أفكار أخلاقية وفلسفية جديدة، ظهرت للمرة الأولى فكرة العدالة الاجتماعية بمفهومها آنذاك، وظهرت فكرة المساواة على الأقل أمام الموت ومصير الروح، وهكذا اشتدت مطالب العامة للتمتع بامتيازاتٍ الخلود بعد الموت.

إن فكرة العدالة والمساواة انبثقت من طلب المساواة في فرص الخلود والحق في الحياة بعد الموت، لم تعد العامة تقبل أن تظل فرصة الخلود حكرا على سلطة الأشراف وملوك الفراعنة، ظهر وعي جديد وتوجه عام بين المصريين القدامى يطالب بحياةٍ أخرويةٍ ويرى أن الخلودٍ حق للجميع ،هذا التوجه الشعبي العام أدى إلى نشوء القيم الأخلاقية المعنوية بكل أنواعها، كالعدل والمساواة والتواضع والإحسان والخير ... إلخ.

وبالعودة إلى سيد القمني مرة أخرى فإنه يرى أن هذه التجربة شكّلت ثورةً في أرض الحكمة والخلود، وهي الأولى من نوعها في التاريخ البشري، كانت ثورةً فلسفيةً أخلاقية مهّدت لظهور إله ثوريّ يعبر عن المعتقدات الشعبية، هذا الإله

الثوري هو "أوزيريس" الذي نقل الامتيازات النخبوية الفرعونية إلى العامة وأقر بالمساواة يوم الحساب. لتحقيق هذا المكسب الثوري دخل أوزيريس في صراع مع رع إله الشمس ، وقد كانت لهذا المكسب انعكاسات مهمة أدت إلى ثورة فكرية وفلسفية واجتماعية في مصر القديمة.

بصورةٍ عامة أظهرت معتقدات مصر القديمة الكثير من المعالم الأولى للإيمان والفلسفة والحكمة ، كما أسهمت في تشكيل المجتمع ثقافياً وسياسياً بصياغة وبناء القيم الأخلاقية والحقوق المدنية وأفكار الميتافيزيقيا وفلسفة الوجود قبل اليونان وحضارتها.

كيف صاغ الفراعنة قصة خلق الكون والإنسان ؟ هل يمكن أن نعتبر مصر الفرعونية أول حضارة بشرية اعتمدت على أحادية الإله في تصورها لعملية الخلق ؟ للإجابة عن هذا السؤال الهام والشائك في نفس الوقت يجب أولا أن نستحضر قصة الخلق كما تجسدت في كتاب العهد القديم اليهودي وانتقلت إلى كتاب العهد الجديد المسيحي ثم إلى القرآن كتاب المسلمين ،مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار بعض التغييرات الطفيفة التي نجدها بين هذه الكتب الدينية المقدسة.

جاء في كتاب العهد القديم ، الكتاب المقدس لدى اليهود ، أن الله خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، ورد في العهد القديم كما في الكتب المقدسة التي جاءت بعده أن الخلق تحقق من العدم ، لم يكن شيء قبل فعل الكينونة "كن" ، كل شيء خلق بعد أن قال الله " كن " فكان ، كل شيء خلقه الله حسب إرادته ورغبته ، إن المادة التي تكون منها الكون خلقت بالإرادة الإلهية . ونحن نتتبع عملية الخلق كما وردت

في العهد القديم والكتب السماوية الأخرى التي تحكي نفس القصة تقريبا نجد أنفسنا أمام وضعيتين : الأولى هي وضعية ما قبل الخلق ، والثانية هي وضعية الخلق من العدم ، وهذا ما يعرف باسم"création ex nihilo " "الخلق من العدم" وهو مصطلح يستخدم لوصف فكرة الإلهية أو القوة الخالقة التي تقوم بإحداث الوجود من العدم، و يشير المصطلح كذلك إلى قدرة الإله أو الكيان الخالق على خلق المادة والكون بدون وجود سابق لها. في العديد من التقاليد الدينية والفلسفية تُعتبر قدرة الخلق من العدم إحدى سمات الإله أو القوة الإلهية، ويُعتقد أن هذه القوة تتجاوز قوى الطبيعة .

حينما ننتقل إلى قصة الخلق الفرعونية نجدها تختلف شيئا ما عما ورد في الديانات الإبراهيمية ، وقد وردت في الكثير من الأساطير المصرية والقصص المقدسة التي كان يؤمن بها المصريون، وهي تتميز بعمقها الفلسفي وتضم شخصيات متعددة منها الآلهة ومنها أنصاف الآلهة ، بينما وجود البشر في هذه الأساطير كان يأتي كمكمل للقصة دون أن يؤثر في توجهها العام .

تعددت أساطير الخلق الفرعونية وتنوعت حسب المناطق والمدن ، وهي تعكس العظمة والتنوع الذي ميز التصور المصري القديم للوجود. عندما نقوم بقراءة أسطورة الخلق الفرعونية، نكتشف أنها أكثر تعقيداً بالمقارنة مع الأساطير السابقة واللاحقة ما يجعلها متفردة ، إنها تتميز بعمق كبير في تحديدها للمبادئ الأساسية للحياة والطبيعة والمجتمع ولكن

على الرغم من تنوعها فإنها تتفق حول نشأة العالم من الفوضى LE CHAOS .

الفوضى LE CHAOS هي حالة عدم النظام والترتيب، تشير الفوضى إلى غياب الهيكل والتنظيم، في السياق الفلسفي والديني يشير المصطلح إلى حالة أولية أو بدائية قبل توفر النظام ، الفوضى هي حالة سابقة على الخلق ،في بعض التقاليد الدينية والميثولوجية، تظهر الفوضى ككيان أو حالة منفصلة سابقة على الخلق، ويُعتقد في بعض الأديان أن الإله أو الكيان الخالق ينحصر دوره في تحويل الفوضى إلى نظام وترتيب لتتحقق عملية الخلق ، أما في بعض الفلسفات تُعتبر الفوضى جزءًا من التوازن الأساسي في الكون حيث يتعايش النظام والترتيب مع الفوضى ، و يُعتقد أن الفوضى قد تكون أساسًا للإبداع والتغيير والتجديد.

تم سرد أساطير الخلق الفرعونية في الكتابات الهيروغليفية المنحوتة على الأهرامات والمعابد والمقابر وأوراق البردي le papyrus ، وهي تعكس عظمة الفكر المصري القديم ومدى احترام المصريين للقوانين السماوية . تأثرت هذه الأساطير بالبيئة الطبيعية التي عاش وسطها المصريون القدماء ، حيث تتحكم دورات الشمس ونهر النيل في حياتهم اليومية وفي نمط إنتاجهم، كما اعتبر المصريون الماء والشمس رمزين للحياة، ولكنهم كانوا يشعرون بوجود خطر دائم يتهدد حياتهم المنظمة بما أن الفوضى الأولى التي خلق منها الكون والأرض ،مازالت موجودة وهي مستقرة خارج العالم ، يمكن أن يستعيدها الخالق متى شاء لتدمير النظام أي

الكون ، لهذا كانت حياة المصريين تسير على نظام دقيق ومحكم.

كان يحمل المصريون قلقا دائما وخوفا من فقدان النظام وعودة الفوضى الأولى ، لهذا احتاجوا إلى دعم الآلهة ، تقربوا منها طلبا للحماية لكن هده الحاجة اختلفت من منطقة إلى أخرى ، لهذا أنتج المصريون قصص خلق متعددة .

تعتبر قصة الخلق في أسطورة الإله "نون" والإلهة "نوت" من بين أشهر أساطير الخلق المصرية . في البداية كان الإله نون/ الأرض، والإلهة نوت/السماء متلاحمين ومتلاصقين، ثم فصلهما الإله شو/إله الهواء. انفصلت السماء عن الأرض، وظهر الإله رع/ إله الشمس الذي يسافر عبر السماء ليعيد الحياة إلى البشر بعد ظلام الليل الذي كان يساوي الموت .

كان رع كل صباح ينشر الحركة والنشاط في العالم بواسطة نوره، في كل مساء كان يمر وراء الأفق الغربي ليصل إلى منطقة غامضة لا يدركها الإنسان ، تمثل المنطقة غير المجسدة من إله السماء/نون، يقوم رع برحلته كل مساء ثم يخرج من الأفق الشرقي عند الفجر.

تصف النصوص المصرية بشكل مختلف شمس الليل وهي تسافر تحت الأرض داخل جسد نوت /إلهة الأرض. يعتقد علماء الأنثروبولوجيا المصرية أن نوت تمثل السطح المرئي لمياه نون حيث تطفو النجوم وتبحر الشمس عبر تلك المياه السماوية في شكل دائري.

تصور المصريون السماء كمظلة صلبة ، وتصوروا الشمس وكأنها تسير فوق سطح السماء من الغرب إلى الشرق أثناء الليل ، لقد استوحى المصريون حركة الشمس والزمن من

ظروف بيئتهم إذ كانوا يراقبون كل يوم شروق الشمس وغروبها ، يتابعون باهتمام انتظام حركتها التي تنظم نشاطهم اليومي ، ونتيجة هوس المصريين القدامى بالنظام اعتقدوا أن نشأة الكون استمرت على مدى فترة طويلة من الزمن عاشت فيها الآلهة على الأرض حيث أنشأت ممالك عادلة ، ثم قررت الانتقال إلى العالم العلوي وورث عنها الفراعنة الحق في الحكم.

في قصة خلق ثانية سيضلع الإله "أمون" بمهمة خلق الكون لكنه لم يخلقه من العدم وإنما خلقه من مادة أولية موجودة قبل الإله نفسه ، "أمون" لم يخلق المادة كانت موجودة قبل وجوده ، كانت تحتاج فقط إلى مخصب فقام الإله أمون بهذا الدور أي تخصيب المادة التي تسمى "المحيط البدائي" .

عندما نقارن بين هذه القصة والقصة الإبراهيمية ، نجد بينهما فارقا مهما ، في الديانات التوحيدية الله يخلق كل موجود من العدم ،بينما تتحدث الأسطورة الفرعونية عن إله مخصب وليس عن إله خالق من العدم . مبدأ التخصيب يختلف عن مبدأ الخلق ،التخصيب يعني وضع المخصب في الرحم وانتظار الولادة ، الإنسان مثلا لا يوجد إلا بوجود مخصب أي مني الرجل الذي يدخل البويضة ، المرأة لا تخلق وإنما تلد وتنجب. الإله المصري " أمون " يختلف عن إله إبراهيم ، أمون سيخصب المادة البدائية فينشأ الكون والمادة الأولية هي التي تعرف باسم الفوضى أيضا LE CHAOS وهي سابقة على الخلق ذاته .

أسطورة "أمون" تدل على أن هناك من المصريين القدامى من آمنوا بأطروحة الخلق الذاتي ، و تعني أن الكون خلق ذاته بذاته بعد أن خصبه الإله "أمون " ،وقد استعمل نفس الأطروحة أفلاطون حينما تحدث عن خلق الكون وأعزى ذلك إلى قوة ميتافيزيقية أو إلى إله قام بضخ النظام في الفوضى الأولية le chaos primordial ، وهو مصطلح يشير إلى مفهوم حالة الكون الأولية التي تتميز بالفوضى المطلقة وعدم وجود شكل أو هيكل.

في العديد من التقاليد الأسطورية والكوزمولوجيات نجد مفهوم الفوضى الأولية التي ينشأ منها الكون وجميع كياناته، وغالبًا ما يُستخدم مفهوم الفوضى الأولية لشرح أصل الكون ولتمثيل فكرة التحول أو الخلق من حالة الفوضى.

تقدم هذه الأطروحة الخالق على أنه مهندس قام بتنظيم المادة الأولية وشكل منها الكون ، هذا الخالق المهندس غير معروف، متوار ومختف عن الأعين ،هو وحده القادر على تنظيم الكون بعد أن كان مجرد فوضى .

إن تعدد واختلاف نصوص وقصص الخلق المصرية من منطقة إلى أخرى ، ومن زمن إلى آخر، قد يعيق فهمنا للميتافيزقا الفرعونية ، إذ نجد أنفسنا أمام مجموعة من القصص تتقاطع في نقط وتختلف في أخرى .نجد في الميثولوجيا الفرعونية قصصا أخرى تعزي الخلق إلى آلهة آخرين غير "أمون" ، هناك الإله "أتوم" إله الخلق في مدينة هيليوبوليس ، نجد في أحدى الأساطير المصرية القديمة ، أن "أتوم " خلق نفسه بنفسه على قمة التل الأزلي، ثم خلق العالم، و خلق "شو" الهواء و"تفنوت" الرطوبة. "أتوم" إله ذكر

وأنثى في نفس الوقت توحد مع الإله رع وأصبح يعرف باسم "أتوم رع"
الإله الخالق الآخر في الحضارة الفرعونية يسمى "بتاح" وهو الإله المقدس بمنفيس ،هو المعبود الخالق لدى المصريين القدماء . وجد الإله "بتاح" قبل وجود جميع الأشياء ، بواسطة التفكير والإرادة خلق العالم ؛ "بتاح" تصور العالم بفكره وأتى به إلى الوجود بكلمته المقدسة أمر الخلق " كن " .
يلعب "بتاح" دورًا في الحفاظ على بقاء العالم ودوام الحكم الملكي إنه راعي الحرفيين، العمل ،المعادن، النجارة، بناة السفن والنحت.. نلاحظ أن قصة الخلق التي ظهرت في مدينة منفيس تتقاطع في فعل الكينونة " كن "مع نص العهد القديم وباقي الكتب الإبراهيمية .
عرفت الميثولوجيا المصرية تنوعا مهما في قصص الخلق ، منح المصريون "أمون" قدرة الخلق عن طريق تخصيب المحيط الأولي ،ومنحت لبتاح قدرة الخلق عن طريق تحقق فعل " الكينونة " ، على الرغم من هذا التعدد إلا أن كل النصوص تتفق على وجود إله واحد هو أصل كل الخلق ، وهذا ما يفرض طرح سؤال مهم وإن بصيغ مختلفة : ما هو مصدر هذا الإله الخالق ؟ ما هو أصله ؟ من أين أتى ؟ هل هو نتيجة سبب سابق على وجوده ؟ هذه الأسئلة ليست غريبة على الفلاسفة لأنها تحيل على إشكالية فلسفية تعرف باسم إشكالية السبب الأول ،ويمكن أن نفهمها بكل بساطة من خلال هذا الطرح : إذا كان خلق الكون يعود إلى سبب فإن هذا السبب ناتج عن سبب قبله ،وهكذا تتسلسل الأسباب إلى ما لانهاية ، هذا التسلسل في تتبع الأسباب يفرضه المنطق لأن لا

شيء يخلق من العدم ،أمام هذا الإشكال اختلف الفلاسفة طيلة قرون طويلة ، إلى أن قدم سبينوزا في القرن 18 إجابة أربكت الدوائر الفلسفية والدينية في عصره ، قال سبينوزا بعدم وجود سبب خارجي لوجود الله ،إن الله نفسه هو سبب وجوده أي أن خالق الله هو الله .

إن فكرة وجود السبب في ذاته كما وردت عند سبينوزا تعود أصولها إلى قدماء المصريين ، ففي النسخة الثالثة من أسطورة الخلق تم تصوير الإله "أتوم " على شكل رجل يرتدي الزي الملكي وأحيانا يرتدي التاج الأبيض والأحمر، وهما يرمزان لمصر العليا والسفلى، وفي بعض الأحيان ظهر الإله "أتوم" على شكل أفعى يمسك بيده اليمنى الصولجان رمز الحياة، كما ظهر على شكل: نمس، أسد، ثور، سحلية، قرد.

كان" أتوم" يقدم على أنه الإله الأول والخالق الوحيد، ليس مثله شيء ، وجدت كتابات تنسب إليه على جدران المعابد جاء فيها: "خلقت نفسي على أكمل وجه حسب إرادتي ورغبتي" تعتبر هذه الكلمات المنسوبة إليه جد مهمة لأنها تحيلنا على ما جاء في كتاب العهد الجديد بخصوص ميلاد المسيح وعذرية مريم ، خاصة وأن المسيحيين يعتقدون أن المسيح هو الله. يحيل إعلان "أتوم" على قضية فلسفية قديمة جديدة في نفس الوقت ألا وهي قضية الوعي بالذات، ذلك أن الإله أتوم وجد حينما وعى ذاته، وقد ناقش الكثير من الفلاسفة هذه القضية قديما وحديثا، ومن خلال الطرح الفلسفي لهذه القضية نخلص إلى أن إدراك الذات هو فعل يتحقق

بواسطة العقل ، إن الوعي بالذات هو فعل تصدير الذات إلى الخارج على شكل تمثيل عقلي، من خلال الوعي الذاتي نخرج من أنفسنا وننشطر إلى كيانين هما : الأنا الذي يفكر والأنا الذي فكر ، الأنا الذي أنجب والأنا المولود ، أي الأنا الذي خرج إلى الوجود، لهذا يمثل الوعي بالذات شكلا من أشكال التوليد الذاتي بمعنى توليد صورة الذات من خلال الذات نفسها .

بالنسبة للمصريين القدامى إن أصل الكون لم يكن عملا من أعمال الخلق بل نتج عن فعل لفظي يختص به الإله. كيف؟ ببساطة نقول إن "أتوم" ولد نفسه داخل الفوضى البدائية LE CHAOS، في التصور الديني نحن كائنات قاصرة لا يمكن أن ندرك هذه الفوضى البدائية هي غير معروفة لا يمكن أن نعيها ،نحن ندرك فقط الجزء المرئي من الكون وهكذا تكون الفوضى الأولية هي مصدر الكون ، ومنها أنتج الإله "أتوم" نفسه ،إنها المنظومة الأبدية للروح الإلهية وبهذا المعنى فإن الفوضى البدائية تحتوي على كل مكونات الوجود : الله والكون المنظم ، لكن الخلق لم يتحقق إلا بعد أن أدركت الفوضى البدائية ذاتها ووعت وجودها.

على ضوء ما سبق يظهر أن المصريين القدامى كانوا يملكون تصورا فلسفيا ميتافيزيقيا حول أصل الكون ،بل امتلكوا نسقا فلسفيا مكتملا ، يمكن أن نوجز أهم معالمه في ما يلي : ولد الكون من خلال التقاء مبدأين أساسيين ،هما المبدأ المادي الذي تمثله الفوضى الأولية والمبدأ الروحي الذي يمثله الإله بعد أن وعى ذاته ،وهكذا فإن الوجود قائم على الثنائية ،ألمادة

والروح ولا يستثنى الإنسان من هذه القاعدة فهو مركب من مادة وروح ،والروح متعلقة بالوعي ،من هنا سيكون الوعي هو الجزء الروحي من كياننا ، بدونه سنكون مجرد أجساد تحكمها الاحتياجات الفسيولوجية فقط .آمن المصريون القدامى بأن علاقة الجسد بالروح يحكمها زمن الحياة فقط ،عندما يموت الإنسان تغادر الروح الجسد لتسافر إلى العالم الآخر ،الموت في تصورهم لا يمثل النهاية وإنما ولادة جديدة في العالم الروحي.

إن الكثير من فلاسفة اليونان لم يفهموا جيدا تصور المصريين القدامى لدورة الخلق والحياة ،هيرودوت مثلا كان يعتقد أن المصريين يؤمنون بالتناسخ أو الحلول الروحي حيث تنتقل الروح من جسد إلى آخر أو من كائن إلى أخر إلى أن تصل إلى الدرجة العليا من التطهير، ولكن بعد أن وصلهم كتاب الموتى المصري فهموا تصور الفراعنة للروح والموت ، كتاب الموتى هو عبارة عن مجموعة من النصوص والتعليمات الدينية والسحرية والفلكية التي كانت تستخدم في مصر القديمة خلال الفترة الفرعونية. يعرف هذا الكتاب باسم "كتاب الأشياء التي في المجيء بعدها" ، ويعتبر واحدًا من أهم النصوص الدينية في الثقافة المصرية القديمة، كان يستخدم لتوجيه الأرواح في رحلتها إلى الحياة الأبدية.

يضم الكتاب تعليمات مهمة تساعد الفرد على تجاوز العقبات التي تواجهه أثناء رحلته إلى الحياة الأخرى، وفيه صيغ سحرية وتعويذات لحماية الشخص من الأرواح الشريرة والمخاطر الأخرى. كانت نسخ كتاب الموتى توضع في المقابر مع الموتى ،قد تختلف محتويات الكتاب من قبر لأخر

حيث كان يتم تكييفه وتخصيصه من طرف الكهنة ليتناسب مع معتقدات ووظيفة الميت ومستواه الاجتماعي .
من النصوص الأساسية في كتاب الموتى نجد نصا خاصا يدافع به الميت عن نفسه (ويسمى الاعتراف بالنفي)، جاء في هذا النص ما يلي : "السلام عليك أيها الإله الأعظم ، إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعا لأشهد جلالك، جئتك ياإلهي متحليا بالحق، متخليا عن الباطل، فلم أظلم أحدا ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين ولم تضلني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي ولم تمتد يدي لمال غيري، لم أكن كاذبا ولم أكن لك عصيا، ولم أسع في الإيقاع بعبد عند سيده. إني (ياإلهي) لم أوجع ولم أبك أحدا، وما قتلت وما غدرت، بل وما كنت محرضا على قتل، إني لم أسرق من المعابد خبزها ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس شيئا مقدسا، ولم أغتصب مالا حراما ولم أنتهك حرمة الأموات، إني لم أبع قمحا بثمن فاحش ولم أغش الكيل. أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر. وما دمت بريئا من الآثام، فاجعلني ياإلهي من الفائزين".
كل الحضارة الفرعونية قائمة على الدين وتدور في فلكه ،ولعل هذا ما دفع بالمؤرخ الإغريقي هيرودوت إلى القول :" المصري متدين بطبعه" وتعد الديانة الفرعونية من أكثر الديانات نضجا وتعقيدا ، ولا غرو في ذلك إذا علمنا أن الدين هو أصل الحضارة الفرعونية بأكملها. كان الدين هو المنظم لحياة المصريين ،كل الدورة الحياتية اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية كانت تخضع للدين وتدور في فلكه ،كان رع إله الشمس يشرق صباحا ليبدأ يوما جديدا إلى أن يصل

إلى الغروب فينزل إلى العالم السفلي ليواجه الثعبان الذي يريد أن يقتله ليعم الظلام ، لكن رع وبمساعدة أوزوريس ينتصر في كل ليلة على الثعبان لتشرق الشمس من جديد ،كما كان ارتفاع منسوب المياه في النيل وانخفاضه رهينا بمزاج الآلهة ،وكان لا بد أن يخلق المصري القديم طقوسا خاصة وتعويذات ويخترع تمائم سحرية ويقدم القرابين ليعبر عن طاعته للآلهة ليستمر التوازن الذي يعتبر ضروريا من أجل الحياة.

اهتم المصري القديم بحياته اليومية التي اعتبرها مجرد قنطرة عبور إلى الحياة الأبدية ، كان يؤمن بالحياة ألأخروية وبالبعث والخلود، هذا الاعتقاد سيطر على المصريين بشكل كبير، آمنوا بأن الحياه مؤقته وبعد الموت توجد الحياة الأبدية، بعد المحاكمة والحساب ،والمثول أمام أوزيريس لينظر ما زرع الميت في دنياه من حسنات وما ارتكب من سيئات، فيجازى المُحسن على إحسانه، ويعاقب المُسيء على سيئاته .

لتحقيق الخلود كان يستعد المصريون أيما استعداد والتقيد بشروطه الدقيقة، لتمر الرحلة بسلام ، كان المصري القديم يفكر أولا في التحنيط لأنه آمن بأهمية الجسد في الحياة الأخرى . كان المصريون يسعون إلى صيانة الجسد من التلف ، بدون الجسد لا يمكن أن يكون حساب أو بعث، ونتيجة البحث عن أنجع السبل للحفاظ على الجسد من التلف لاحظ المصريون القدامى أن بعض أعضاء الجسم تتلف بسرعة إن هي تركت داخل الجسم ، فقاموا بنزع كل الأعضاء سريعة التعفن : الرئتان، الكبد، الأمعاء والمعدة ،

أما المخ فكانوا ينزعونه ويتخلصون منه ثم وضعوا كل عضو في إناء ، كان مجموعها أربعة أواني مثلت أبناء الإله حورس الأربعة ونظرا لأهمية القلب لإتمام عملية الحساب بعد الموت فقد اهتموا بتحنيطه داخل جسد الميت ..

وردت الكثير من قصص البعث في الحضارة الفرعونية ، ولكن أبرزها هي تلك التي وردت بالتفصيل في "كتاب الموتى" كان الكهان يقومون بتجهيز كتاب الموتى الخاص بالفقيد بحيث يذكر فيه اسمه واسم أبيه واسم أمه ووظيفته في الدنيا، وتجهيز طقوس نقله إلى مقبرته، و لم يكن هذا الطقس الديني متاحا لكل المصريين ، لأنه مكلف جدا لذلك استأثرت به طبقة معينة من النبلاء والموظفين وخدام الآلهة في المعبد.
كان كتاب الموتى مهما بالنسبة للميت، لأنه يضم تعليمات إرشادية تمكن روح الفقيد من تخطي العقبات والمخاطر التي ستصادفها أثناء رحلتها إلى العالم السفلي ، إنها رحلة شاقة تلفها الكثير من المخاطر منها المرور عبر 12 بوابة قبل الوصول إلى الخلود ، كان كتاب الموتى يحمل أسماء كل الأبواب ، وتعويذات فتحها للمثول أمام محكمة الموتى يوم الحساب .

تتكون محكمة الموتى من 42 قاضيا للنظر في أعمال وأفعال الفرد قبل موته ، أسفل القضاة كان يجلس أوزيريس على عرشه وخلفه تقف أختاه إيزيس ونفتيس وأمامه الأبناء الأربعة لحورس ، إلى اليسار يقف أنوبيس بالقرب من الميت لإجراء عملية وزن قلبه، وسط المحكمة تتم عملية وزن القلب ،وهي مهمة موكلة للإله أنوبيس ، تتم عملية الوزن بوضع

قلب الميت على كفة الميزان ووضع ريشة الحق أو "ماعت" على الكفة الأخرى .تعتبر ريشة الحق أو "ماعت" رمزًا قويًا في الثقافة المصرية القديمة وهي ترمز إلى العدل والحقيقة والمساواة .

يزن أنوبيس قلب الميت ويقارنه بريشة الحق ماعت كما يظهر بمحكمة الموتى " تحوت" إله الحكمة ،وهو من علم المصريين القدماء الكتابة والحساب، ليقوم بتسجيل نتيجة الميزان على سجله الأبدي ، إذا كان القلب أخف من ريشة الحق جاز للميت أن يدخل عالم الخلود إلى جانب الآلهة ، أما إذا كان القلب أثقل من الريشة يلقى صاحبه إلى "عمعموت" ليلتهمه وهو وحش خرافي له رأس أسد وجسم فرس النهر وذيل تمساح.

بعد انتهاء عملية الحساب بنجاح يقدم الإله حورس الميت لأوزيريس فيعطيه لباسا جميلا ويدخله إلى "الجنة" حيث حقول الفردوس تجري من تحتها الأنهار ليعيش فيها راضيا سعيدا أبد الآبدين.

تبين أسطورة البعث والحساب الفرعونية ، أن العقائد الدينية كانت تشغل المصريين القدامى طوال حياتهم، كان الموت جزءا لا ينفصل عن الحياة ، كان تصورهم للموت والحياة لا يختلف كثيرا عما نعتقده اليوم، كانوا يستعدون له كما يجب للعبور إلى الحياة الأخرى ، وعلى الرغم من التباعد الزمني بيننا وبين الحضارة الفرعونية ، ورغم اختلاف مصادر التشريعات الدينية بيننا وبينهم ، فلا يمكن أن ننكر وجود تقاطعات ملحوظة بين معتقداتنا ومعتقداتهم.

## 6- أسطورة الخلق الإغريقية

في البداية كانت الفوضى LE CHAOS، فراغ فارغ، ثم أنجبت غايا، الأرض، وتارتاروس منطقة الجحيم تحت الأرض، وإيروس إله الحب والجاذبية.
توحد إيروس ظلام العالم السفلي مع الليل ظلام الأرض ، فأنجبا النور السماوي والنهار النور الأرضي. وفي وقت لاحق أنجب الليل القضاء والمصير والموت والنوم والأحلام وقائمة طويلة من الفظائع التي أصبحت تقظ مضاجع الناس في الليل والنهار،كما أنجبت غايا بمفردها أورانوس والنجوم والجبال والبحر العقيم.
وفقًا للأسطورة كان أورانوس وغايا من الأجناس الإلهية الأولى ، كانا يمثلان القوى الأولية في الكون، كانت تربطهما علاقة زواج أنجبا على إثرها العديد من الآلهة والكائنات الأخرى ،كما أنجبا العمالقة ومنهم الكيكلوبس والسنطور والسيكلوبس والهيدرا ، وأنجبا أيضا العمالقة الأربعة والخمسين (التيتانز) ،من بين التيتانز الأكثر شهرة: كرونوس (الذي أطاح بأبيه أورانوس)، وأوكيانوس (إله البحار)، وثيا (زوجة كرونوس)، وبروميثيوس (خالق البشر وسارق النار).
كان أورانوس زوجًا وأبًا قاسيًا، كانت تربطه بالسيكلوب علاقة كراهية ،السيكلوب (Cyclops) في الأساطير اليونانية كائنً ضخمً متوحشً له عينً واحدة كبيرة في وسط جبينه.
وفقًا للأسطورة كان أورانوس يخشى قوة السيكلوب، فقام بسجنهم في الجوف العميق للأرض، كما سجن باقي أبنائه في

بطن زوجته غايا، فبدأت تفكر في الانتقام من زوجها أورانوس ، لجأت إلى ابنها كرونوس الذي نجا من بطش ابيه وطلبت منه مساعدتها على قتله.
اعتق كرونوس السيكلوبس وساعدهم على الهروب من السجن ليكون معهم حلفا قويا ، بهدف محاربة أورانوس والقضاء عليه وإزاحته عن عرش الألوهية . لتنفيذ خطة التخلص من أورانوس صنعت غايا فأسا حادة وطلبت من أبنائها التياتانز أوالجبابرة والسيكلون قتل أبيهم ، لكنهم خافوا من بطش والدهم ورفضوا أن يقدموا لها يد المساعدة ، كرونوس أصغر التايتانز سنا واشجعهم ، أفصح لأمه غايا بأنه على استعداد لاغتيال أبيه أورانوس.
ليلة تنفيذ الاغتيال / الانتقام ، دخل أورانوس إلى غرفته طلبا للسكون والراحة ، بينما كان كرونوس مختبئا يتحين فرصة الانقضاض على والده. استغل استغراق أبيه في النوم ، فأمسك بأعضائه التناسلية وقطعها بفأس أمه ،ثم رمى بها في البحر، ومن الرغوة التي أحدثتها خلقت أفروديت الجميلة إلهة الحب. بعد أن تم نشويه أورانوس تخلى عن السلطة وانسحب من ساحة الحكم إلى الأبد وهو يتوعد كرونوس والتايتانز بانتقام شديد.
وطد كرونوس حكمه ثم تزوج شقيقته ريا فحملت منه ، وأنجب معها العديد من الآلهة : زيوس (ملك الآلهة)، هيرا (زوجة زيوس) بوزيدون (إله البحار) هادس (إله العالم السفلي) ديميتري (إلهة الزراعة والحصاد) هيفايستوس (إله النار والحدادة) أبولو (إله الشمس والفنون) وآرتيميس (إلهة القمر والصيد ، لكنه أبعدهم عنه مخافة أن تتحقق نبوءة

إزاحته من السلطة من طرف أحد أبنائه ، ثم أقدم على ابتلاع كل أولاده ليتقي شرهم ،غضبت ريا من كرونوس غضبا شديدا ،وبذلت جهدا كبيرا لإنقاذ طفلها السادس زيوس ، أخفته عن كرونوس ، قدمت له حجرًا ملفوفًا في ملابس رضيع فابتلعها معتقدا أنه تخلص من آخر أولاده.

أبعدت ريا زيوس عن ابيه ،أخفته وسط الطبيعة ووضعته تحت رعاية النيمفات les nymphes ، وهي كائنات خرافية في الأساطير والتراث الشعبي، وتعتبر من أنواع الكائنات الروحية ، في العديد من الثقافات يعتقد أن النيمفات هي روحانيات الطبيعة، تتألف عادةً من الأشجار والينابيع والبحيرات والغابات والجبال وغيرها من العناصر الطبيعية.

وفقًا للأساطير تعتبر النيمفات حارسات الطبيعة، ويتم تصويرها عادةً ككائنات جميلة ورقيقة. تختلف تصورات النيمفات من ثقافة إلى أخرى، في بعض الأساطير الإغريقية تعتبر آلهة صغيرة تأخذ صورة الأشجار والينابيع.

نشأ زيوس في كريت تحت رعاية النيمفات ، لما كبر انشغل بالتفكير في الانتقام من أبيه وإسقاطه من عرش الألوهية فطلب المشورة من التايتانز ميتس لعله يمنحه النصيحة لينتصر على ابيه كرونوس.

التايتانز LE TITAN ميتس هو الشريك الأول لزيوس ، وأحد الآلهة القديمة في الأساطير الإغريقية ، وهو إله الحكمة والمشورة والمكائد الذكية والذكاء الحاذق . دبر ميتس خطة لإخراج إخوة زيوس من بطن كرونوس، أعد مشروبًا مسهلًا وطلب من زيوس أن يتنكر في صورة خادم ويقدمه له ،

شرب كرونوس المشروب فتقيأ إخوته وأخواته التي كان قد إبتلعهم بعد ولادتهم مباشرة ، كما تقيأ الحجر الذي ابتلعه وهو يظن أنه ابنه الأخير.

لم تصب الآلهة الصغيرة بأي أذى ، كانت كلها على قيد الحياة، فتحالفت مع زيوس ضد أبيهم ، نشبت الحرب بينهم ودارت معارك كثيرة ،انتهت بانتصار حلف زيوس وإلقاء القبض على كرونوس وحبسه في تارتاروس العالم السفلي.

لم يمثل انتصار زيوس على كرونوس نهاية للحرب من أجل السيطرة على الحكم ذلك أن زيوس سواجه تمرد التيتانز LES TITANS الموالين لكرونوس باستثناء بروميثيوس وأوكيانوس. استمرت المعركة عشر سنوات هزت كل الكون وكأن الفوضى عادت من جديد لتخلخل توازن الكوسموس. كان من الصعب أن يتحقق الانتصار لطرف من الأطراف المتصارعة، لأن القوتين المتصارعتين كانتا متكافئتين ،في الأخير حسم زيوس أمر المعركة لصالحه عندما نزل إلى العالم السفلي تارتاروس وأطلق سراح السايكلوبس، والهيكاتونكيريس الوحوش التي لها مئة يد وخمسين عينا.

ساعد السايكلوبس زيوس، منحوه قدرة التحكم في البرق والرعد، وقام الهيكاتونكيريس بقذف التيتانز بالصخور، وهكذا انتصر زيوس وانهزم التيتانز، وتم حبس المتمردين في تارتاروس، وحكم على أطلس ،التيتانز المتمرد بأن يقف إلى الأبد على حافة العالم ويحمل الأرض على كتفيه.

لم تستسغ غايا انهزام أبنائها التيتانز، فتوحدت مع تارتاروس وأنجبت وحشا مرعبا اسمه تيفويس، (Typhoeus). يُعتبر

واحدًا من العمالقة، إنه وحش مرعب وضخم ، يحمل مئات الرؤوس الثعبانية وينفث النار. حارب تيفويس الآلهة في معركة عنيفة استخدم فيها كل رؤوسه ، أمام قوته الهائلة هربت معظم الآلهة، كما تم أسر زيوس إلى أن هب هرميس لنجدته إذ تمكن من إطلاق سراحه . عاد زيوس إلى المعركة ليخوض آخر لقاء حاسم ضد تيفويس ، في الأخير تمكن زيوس من الانتصار على وحش غايا بفضل قدرته على التحكم في الصواعق واستخدامها في المعركة ، أمر بدفن تيفويس وحش غايا المرعب تحت جبل إتنا في صقلية.

لم يرض العمالقة التايتانز LES TITANS الذين تجري في عروقهم دماء كرونوس وغايا بانتصار زيوس ، فقاموا بمحاولة جديدة لتجريده من السلطة ، حاصروا جبل الأولمب بوضع الجبال فوق بعضها البعض لبلوغ قمته ، لكن آلهة الأولمب جمعت كل قدراتها، صدت هجوم العمالقة بمساعدة هيراكليس، وهكذا قضى زيوس على كل محاولات التمرد ، وبسط نفوذه على الكون وحكم آلهة الأولمب.

هذه النسخة من أسطورة الخلق مستمدة بشكل كبير من قصيدة هيسيودوس، وهو شاعر يوناني من القرن السابع قبل الميلاد، تعد هذه القصيدة من أكثر النسخ المنتشرة في العالم قديما وحديثا .

هناك قصة خلق أقدم منها غير معروفة كثيرا ولكنها موجودة ومختلفة عن القصة المتداولة . تحكي الأسطورة الثانية أن يورينوم وهي إلهة كل الخلق خرجت من الفوضى وفصلت البحر عن السماء، ثم خلقت راقصة عارية على أمواج البحر ، وبفعل احتكاك الرياح بها خرج منها الثعبان أوفيون.

ستتوحد أورينوم مع أوفيون لتحمل وتبيض بيضة ،التف حولها الثعبان أوفيون ، فخرج منها الكون وكل ما فيه، ثم استقرت يورينوم وأوفيون على جبل الأولمب.
من على جبل الأولمب أعلن أوفيون نفسه الخالق الوحيد، فطردته يورينوم إلى العالم السفلي ، لتنشغل بإتمام خلق الكون ، خلقت الكواكب السبع وعلى كل كوكب وضعت تايتانز لحكمه ، في الأخير ستخلق الإنسان من تراب.
تفتقر هده القصة إلى الدراما ولعل هذا ما أدى إلى عدم انتشارها ، كما نلاحظ أنها منحت الهيمنة والسلطة المطلقة للإلهة الأنثى وهذا ما كان يخالف الثقافة الذكورية المهيمنة على الأساطير اليونانية ،ربما تعكس هذه الأسطورة مجتمعًا أميسيا، ذلك أن الإلهة الأنثى تخلق شريكا لها من الرياح ،تتحد معه وتتخلص منه عندما ادعى أنه هو الخالق الوحيد.
تبدو يورينوم إلهة شرسة تستطيع أن تعيش بدون الإله الذكر لأنها ذات مكتفية بوجودها .
في هذه الأسطورة يبدو أن الأحداث تقع بشكل عرضي بدءا من ولادة يورينوم إلى خلق الإنسان، لكل هذه الأسباب والاعتبارات نفهم سبب انتشار أسطورة الخلق التي وردت في قصيدة هيسيودوس.
بعد أن استتب الأمر لزيوس وبسط هيمنته على الآلهة بدأ يفكر بجدية في خلق كائنات تستوطن العالم ومنها الإنسان .
إن قصة خلق الإنسان في الأساطير اليونانية غريبة جدًا ، بعد أن قضى زيوس على كل حركات التمرد وسجن معارضيه في تارتاروس أو العالم السفلي ، نصب نفسه إله الآلهة ،تربع على عرش قمة جبل الأولمب، ثم اخترع لنفسه

أحلاما جديدة ، لم يعد يجد متعته في حكم الآلهة ، أراد خلقا جديدا يتسلى بالتحكم في مصائرهم وتوجيه حياتهم ، فكر في خلق كائنات حية مختلفة عن الآلهة ،في الأخير استقر على فكرة خلق البشر والحيوانات على الأرض ليراقب من على قمة جبل الأولمب صراعها وانتظاراتها.

استبد الحلم بزيوس فاستدعى بروميثيوس وشقيقه إبيميثيوس إلى جبل الأولمب ، أطلعهما على حلمه الجديد ورغبته التي أصبحت تستبد به ،ثم كلفهما بمسؤولية تحقيق هذه الرغبة التي سكنته أكثر من رغباته الجنسية وخياناته ومغامراته مع جميلات الأولمب.

قبل الشقيقان التحدي وقررا أن يخوضا معا مغامرة الخلق ، لكن بروميثيوس سيمنح لتجربة الخلق أبعادا ملحمية وفلسفية وجودية ، معه ستتحول أسطورة خلق الإنسان إلى موضوع تأمل وتفكير فلسفي في الكون والطبيعة التي تعتبر من ملحقات الإنسان ، وسينضج وعي جديد وعميق يلفت الانتباه إلى قيمة المعرفة ودورها في بناء الكائن الحي .

أعطى زيوس توجيهاته لكل من بروميثيوس وإبيميثيوس وأمرهما بمباشرة عملهما ، كانت رغبات زيوس أوامر ، لذا رحب الأخوان بالمهمة واعتبراها تشريفا ،رغم أن بروميثيوس كان يدرك جسامة المهمة وخطورتها ،لذا حاول أن يتعامل مع الخلق بجدية كبيرة جدا ،ونظرا لأن زيوس كان هو الآخر يرى أن هذه المهمة صعبة، فقد قدم للأخوين كل اللوازم الضرورية التي سيحتاجانها لإتمام عملية الخلق في أحسن الظروف .

قبل أن يشرعا في عملية الخلق قال لهما زيوس :" يجب أن تمنحا لكل مخلوق اللوازم الضرورية التي تسمح له بالبقاء على قيد الحياة ، لا تغلبوا كائنا على آخر ، وفروا للجميع فرصا متكافئة للحياة. " وزع زيوس على الأخوين المخالب الحادة والأسنان والأنياب والأصداف والبصر الحاد والذكاء وحاسة شم والريش والجلد والصوف والسرعة والحوافر والمخ والأرجل الطويلة والأخرى القصيرة ...إلخ

كان التحدي كبيرا والرهان أكبر والنجاح صعبا ،لأن الاختلاف كان صارخا بين الأخوين من حيث البناء النفسي والسلوكي وطريقة التفكير ،تحكي الأسطورة أن بروميثيوس Prométhée كان يلقب بالمتبصر ، اسمه يدل على صفاته وقدراته الفكرية والتنبؤية.

يُعتبر بروميثيوس المتبصر واحدًا من أبطال الأساطير الذين يتميزون بالحكمة والذكاء الاستثنائي ،ويعتقد أنه كان يتمتع بقدرة على رؤية المستقبل والتنبؤ بالأحداث المقبلة بشكل دقيق. إن قدرته على التفكير المستقبلي والتخطيط الذكي سمحت له بتوقع الأحداث قبل حدوثها ،واتخاذ القرارات المناسبة لتجنب الفشل والاستفادة من الفرص المتاحة ، يعتبر مثالًا للعبقرية والقدرة على استخدام العقل والحكمة لتحقيق النجاح والتفوق واستثماره لقدراته الفكرية والتنبؤية، نجح في تحقيق العديد من الإنجازات والتغييرات الإيجابية لصالح الآلهة والبشر.

إبيميثيوس (Epimetheus) ، شقيق بروميثيوس ونقيضه في الصفات ، اندفاعي ومتهور ، مشدود إلى الماضي ، لا يهتم

بالمستقبل ، غير قادر على التخطيط، ويغيب عنه بعد النظر، يعمل إبيميثيوس بمبدأ التجربة والخطأ ، يتصرف بشكل غير حكيم ومتسرع ولا يقوم بالتخطيط للمستقبل..
انطلاقا من النظر في الصفات المميزة للشقيقين تظهر الاختلافات الصارخة بينهما ، لهذا نقول : إن تكليف شخصيتين متناقضتين بهذه المهمة سيجعل من عملية الخلق جد صعبة ، تكون أبدا سهلة كما تصورها إبيميثيوس، وما سيزيد من تعقد العملية أن إبيميثيوس طلب من أخيه بروميثيوس أن يترك له مسؤولية الإشراف على عملية الخلق كلها .
باشر إبيميثيوس عمله، بدأ بخلق الحيوانات ، وكلما انتهى من نوع وزع عليه شيئا من اللوازم التي وضعها رهن إشارتهما زيوس ، كان إبيميثيوس منهمكا بالخلق ومنشغلا بتوزيع اللوازم الضرورية التي تمكن كل نوع من البقاء. دون أن يعتمد على نظرة استشرافية ، كان يوزع لوازم البقاء على الحيوانات بسخاء مبالغ فيه ، لم يفكر في انعكاسات اختياراته على الصراع الذي سيحتدم بين الكائنات الحية الجديدة التي ينتظرها زيوس بفارغ الصبر.. نتيجة التسرع وغياب رؤية مستقبلية والعمل بغباء ، قام إبيميثيوس بخلق الحيوانات باختلاف أنواعها ، وزع عليها لوازم البقاء ، لكن في غياب التبصر واستشراف المستقبل نفذت كل اللوازم التي منحها لهما زيوس ، ولم يبق منها شيء يقدمه للبشر .
كان إبيميثيوس يمارس مهمة الخلق باندفاع عاطفي شديد، دون التفكير في ما يمكن أن تحدثه اختياراته من كوارث ،

بينما كان بروميثيوس منهمكا في تشكيل كائن جميل ، شكله على هيئة الآلهة، وأطلق عليه اسم الإنسان ، وهبته الإلهة آثينا الصفات العقلية ، تعتبر أثينا "Athéna" واحدة من الآلهة الرئيسية في الميثولوجيا الإغريقية ، هي إلهة الحكمة والحرب و العدالة والاستراتيجية والحرف اليدوية والحربية، أما هرميس فقد وهب المخلوق الجديد العدل والضمير. يعتبر هرميس "Hermès" من آلهة الأولمب المقربين من زيوس ، جعل منه رسوله الخاص إلى البشر ، عرف بخداعه وسرقاته ، وهو إله التجارة والحماية والسفر والحرف والحيلة.

رحب بروميثيوس بهذه الهبات الإلهية ،لكنه لم يستطع أن يخفي قلقه على مصير مخلوقه المختلف عن كل الكائنات الأخرى ، لقد وزع شقيقه ابيميثيوس كل امتيازات زيوس على كل الكائنات التي خلقها ونسي الإنسان الذي بدا ضعيفا عاريا، وبدون قوة لا يستطيع أن يضمن بقاءه في هذا العالم العنيف والشرس .

نظر بروميثيوس بشفقة وحيرة إلى إنسانه العاري ، فقرر أن يتدخل ليصلح أخطاء شقيقه ابيميثيوس ، عدل قوام الإنسان ، أوقفه على رجليه ، حرر يديه ومنحه القدرة على رؤية السماء، والنظر نحو الأفق البعيد، لقد جعله يمشي على رجليه ليحرر يديه اللتين ستصبحان امتدادا لأفكاره وخياله . أصبح الإنسان متمكنا من كل أعضائه قادرا على أن يجعل من يديه أداة عمل وسلاح في نفس الوقت ، لكن رغم ذلك ظل بروميثيوس قلقا على مصير الإنسان فقال في نفسه :" يجب

أن أجد حلا ناجعا في أسرع وقت ممكن يمنح للإنسان فرصة البقاء والتفوق على كل الكائنات الأخرى " ثم فكر بصوت مرتفع : " لا يمكن للإنسان أن يعيش عاريا مجردا من فرص البقاء ، ليت زيوس يمنح الإنسان القليل من النار "

على الرغم من تشكيل الإنسان على هيئة الآلهة ،وعلى الرغم من الهبات التي منحت له ،إلا أن بروميثيوس ظل قلقا خائفا على مصيره ، لكن لماذا لم يثق في هبة أثينا وهيرمس ؟ لماذا أراد بروميثيوس أن يمنح النار للإنسان ؟

الإجابة عن هذا السؤال يفرض علينا أن ننظر أولا في دلالة النار نفسها ، من خلال رصد معناها الحرفي والمجازي وإن كان المعنيان معا لا ينفصلان.

إن المعنى الحرفي لكلمة "النار" يشير إلى اللهب أو الشعلة المضيئة ، النار ظاهرة طبيعية تنتج عن تفاعل كيميائي ، تنتج النار الحرارة والضوء، وتعتبر من أهم الاكتشافات التي اعتمد عليها البشر لتحقيق التطور ولازالت ضرورية لاستمرار الحضارة والحياة، استخدمها الإنسان في الطهي والتدفئة والإضاءة وبفضلها انتصر على ظروف المناخ القاسي فأصبحت سلاحه الثمين من أجل البقاء.

بعد طول تأمل وتفكير في حال الإنسان، اقتنع بروميثيوس باستحالة بقاء الإنسان على قيد الحياة بدون نار، لهذا قصد زيوس وأطلعه على المشكلة التي أوقعه فيها إبيميثيوس ، كما عبر عن مخاوفه وقلقه عن مصير الإنسان العاري ، ثم قدم التماسا لإله الآلهة قال فيه :" أريد أن تسمحوا لي بمنح النار للإنسان لنضمن بقاءه ". لكن زيوس رفض هذا الملتمس ، ورد بغضب واضح ، صرخ في وجه بروميثيوس : "لا

يمكن أن أسمح بمنح ولو شرارة واحدة من النار للإنسان، سيصبح قويًا عندما يحصل على النار ، سيتعلم من النار كيف يصبح حكيما ، بالنار سيتساوى الإنسان مع الآلهة، سيتمرد ولن يطع أوامري ، سيتمرد على كل الآلهة ، دعه يا برونيثيوس عاريا جاهلا فقيرا ، دعه ضعيفا ليخلص طاعته وعبادته لي ، عليه أن يهاب كل آلهة الأولمب " أحس بروميثيوس بالصدمة ،وشعر بالاستياء والضيق والخوف والقلق ، لكنه وهو المتبصر الحالم المبدع ،غادر الأولمب وكله عزم لينفذ ما يجول في ذهنه .

قرر بروميثيوس أن يسرق نار الآلهة من الأولمب ، استغل انشغال زيوس بمغامراته الغرامية ، تسلل إلى قصره وسرق قبسا من النار ومنحه للإنسان ثم علمه طرق ودواعي استخدامها وتوظيفها في احتياجاته الخاصة : طهي الطعام ، الاحتماء من البرد، العيش بشكل مختلف عن الحيوانات ، وعلمه الحكمة والحذر.

علم بروميثيوس الإنسان أشياء كثيرة ومهارات حياتية متنوعة ، أهلته لأن يتربع على رأس هرم كل المخلوقات. عندما تمكن الإنسان من النار ، انتقل من الكائن الأضعف في هرم المخلوقات ، ليصبح الكائن الأقوى ، أصبح كائنا مهيمنا ومفترسا ، أصبح أكثر افتراسا من الحيوانات المفترسة نفسها.

تفوق الإنسان على كل الكائنات بفضل النار ،ولكن إذا كان للنار كل هذه الأفضال على البشرية فإنها مثلت أيضا أداة دمار خطيرة ،يمكنها أن تدمر كل ما صنعه لتحيله إلى رماد تذره الرياح .

حينما منح بروميثيوس النار للإنسان فقد منحه أداة للبناء والتدمير الذاتي في نفس الوقت إذا لم يصنع لنفسه منظومة قيم تحميه من تدمير عالمه ، وهذا ما يجعلنا نستحضر ما وصل إليه فرويد عند بحثه عن مصدر الدين حين قال :" إن الله اتخذ صورة الأب الخارق القوة، وقد خلقه الإنسان على صورة من يستطيع توفير الحماية ، والحب والعقاب في ظل عدالة إلهية ، فظهر مفهوم الإله العادل ... "

في الواقع لم يسرق بروميثيوس النار فقط ، وإنما سرق أيضا ما تحيل عليه النار من دلالات وأهمها المعرفة ،كما سرق فن العمل اليدوي من الإلهة أثينا ، وقد وظف الإنسان كل هذه الامتيازات ليسيطر على الطبيعة ويسخرها لصالحه ، او هذا ما اعتقد ولازال يعتقد ، وهكذا وحسب تعبير ديكارت سيتمكن الإنسان بالمعرفة من فهم محيطه والتحكم فيه بل وإحداث طفرة كبيرة وقف عندها علماء التطور ، الذين رصدوا تأثير المعرفة على البنية الفيزيولوجية للإنسان ، حيث ساهمت في أن يأخذ المخ البشري حجما أكبر من المعهود ، وظهر ذلك على مستوى الجمجمة التي توسعت لتفسح المجال للمخ الجديد بأن يأخذ مساحة أوسع لينتج أكثر ..

لقد كان من الضروري ان يتطور المخ ، ليتمكن من إنتاج واستيعاب المعرفة التي أصبحت الضامن الرئيسي لبقاء الإنسان وتطوره . عندما اتسعت الجمجمة ووقف الإنسان على رجليه حرر يديه... ويمكن أن نعتبر تحرير اليدين ثورة مهمة في تاريخ التطور البشري ، ستصبح اليدان أداة ضرورية للإمساك بالأشياء، وستصبحان سلاحا أثناء الصيد والجني والزراعة والحرب، كما ستصبحان أداة إبداع وخلق

وإنتاج ، يمكن القول إن اليدين أصبحتا امتدادا للعقل ووسيلة فعالة لتجسيد ما يفكر فيه الإنسان من أجل حياته المتجددة دوما ، كانت الأشياء والأدوات تظهر كتمثلات في العقل الواعي المدرك لمحيطه قبل أن تتحول في العالم الخارجي إلى مواد وإنتاجات ملموسة تؤثث فضاءه وتخلقه باستمرار .

إن سلطة المعرفة ونفوذها وقوتها أهلت الإنسان ليصبح سيد الكون والطبيعة، وكلما زادت معرفته بالعالم زاد نفوذه وارتفعت احتمالات دماره كذلك... المعرفة كالنار هي سلاح بحدين ، لهذا ظل الإنسان بحاجة إلى الحكمة ، للأسف لم يستطع بروميثيوس أن يسرق الحكمة من جبل الأولمب ، لقد ظلت حكرا على الآلهة.

إن أسطورة بروميثيوس تفصح عن تلك الرغبة التي صاحبت قصة الخلق في كل الأديان ، إنها رغبة تعالي الإنسان وسموه وتطلعه ليصبح مساويا للإله وهنا نستحضر ما فعلته فاكهة شجرة المعرفة في حواء وآدم ،كانت فاكهة شجرة المعرفة وسيلة لتحقيق الوعي بالذات وانطلاق عمل العقل الذي يمثل النور المناقض للظلام ، هو نفس النور الذي خلقته النار في الميثولوجيا الإغريقية ،إن العقل والمعرفة والنار كلها تحيل على النور ولعل هذا ما دفع فلاسفة الثورة الفرنسية إلى تسمية عصرهم بعصر الأنوار .

حسب الميثولوجيا الإغريقية ، عندما حاز الإنسان العقل والنار والمعرفة دون باقي الكائنات الحية ، سما قدره واحتل مساحة من مساحات الآلهة التي أدركت أنها لم تعد تستحوذ على العلم الكلي ، حينما منح بروميثيوس الإنسان النار ، كأنه

أقام جسرا عموديا يصل الأرض بالسماء، كأنه منح الإنسان سلما يمكن أن يرتقي به إلى عالم الآلهة.
مرة أخرى نقول إن أسطورة الخلق في الميثولوجيا اليونانية تحيلنا على قصة خلق أدم وحواء وتزكي الحضور الخطير للمعرفة ، عندما تمكن الإنسان من النار /المعرفة غضبت الآلهة غضبا شديدا، كما غضب الله على آدم وحواء، وقاده غضبه إلى طردهما من الجنة ، حكم على آدم بالعمل المضني للحصول على قوت يومه ، و حكم على حواء بالإنجاب وتحمل آلامه، الحكمان معا يسببان الألم ، الغريب في الأمر أن آدم كان سعيدا بمصيره الجديد، نزل من الجنة إنسانا ، نزل ذاتا واعية بوجودها ،لأنه أصبح يحمل المعرفة والعقل والحرية.
في الميثولوجيا اليونانية لم ينتبه زيوس إلى ما يحدث على الأرض ، لم يكن يعرف أن الإنسان العاري أصبح قويا ، لأن إله الآلهة كان منشغلا بمغامراته الغرامية وفتوحاته الجنسية ، صدفة أطل على الأرض من جبل الأولمب ،ورأى الإنسان الجديد ، عرف أنه حاز النار ، غضب غضبا شديدا، صاح من أعلى قمة الأولمب : " من أعطى النار للبشر؟ " همس في أذنه أحد الآلهة كان يقف بجانبه: "إنه بروميثيوس يا سيدي !" اشتدت فورة الغضب استعالا في نفس زيوس ، من ذا الذي يغضب إله الآلهة ؟ قرر زيوس أن ينزل أشد العقاب على البشر وبروميثيوس، لم يفكر كثيرا في طريقة معاقبة بروميثيوس ، بل فكر أكثر في نوع العقاب الذي سينزله على البشر ، أراد عقابا مبتكرا وعنيفا .

استدعى زيوس هيفايستوس إله النار والحدادة ، أمره بأن يشكل إنسانا متفردا ،يتميز بجاذبية غريبة تأسر القلوب.
فور تلقيه الأمر من زيوس ، أخذ إله الحدادة هيفايستوس شيئا من الطين وشرع في تشكيل إنسان بالمواصفات المطلوبة ، فانتهى به الأمر إلى تشكيل وخلق أول امرأة في الوجود.
قدم هيفايستوس إنتاجه الفاتن لزيوس ، انبهر أمام جمالها وحفتها كل الآلهة بالرعاية والعناية، لفتها أثينا في ثوب ذهبي ، منحتها أفروديت إلهة الجمال والحب قواما لا يقاوم، ومنحها هرميس ذهنًا فضوليًا وأطلق عليها اسم "باندورا"، أي "التي وهبت كل شيء" .
سلم زيوس علبة صغيرة لباندورا قبل أن يرسلها إلى الأرض، ثم أمر هرميس بأن يزوجها للمتهور إبيميثيوس الأخ الشقيق لبروميثيوس .عشية زواجها حذرتها الهة أثينا من مغبة فتح العلبة الصغيرة المعروفة في الميثولوجيا باسم "علبة باندورا " "La boîte de Pandore".
رحب إبيميثيوس بالفاتنة القادمة من جبل الأولمب، غمره الفرح ، كان سعيدا رغم أن بروميثيوس حذره من قبول أية هدية من آلهة الأولمب ، لكن إبيميثيوس لم يستطع أن يقاوم سحر باندورا هام بها عشقا ، فتجاهل تحذير أخيه وتزوج منها.
كانت باندورا سعيدة جدًا بالحياة والجمال، إلا أنها لم تستطع أن تتغلب على قلقها الداخلي ، عاشت لحظات جد صعبة ، عيناها لا تعرفان السكينة كما لا يعرف ذهنها السلام والراحة ، كانت تعاني من وطأة فضول ثقيل ومرهق يطاردها طوال

الوقت، كانت تفكر ليل نهار في الغموض المؤلم والمقلق الذي تشكله لها العلبة التي سلمها لها زيوس .
اشتدت عليها وطأة الفضول، أصبحت له قوة لا تقاوم ، أضحت اكبر من إرادتها ، فقررت ذات يوم أن تفتح العلبة لترى ما بداخلها ، رفعت الغطاء برفق، فإذا بأصوات مرعبة تنفلت منها ، كأن رسائل الهلاك والموت تركض خارجة منها تباعا ،لتنتشر في الفضاء وتعم الأجواء بين السماء والأرض .
صاحت باندورا :"ما هذا؟ ما هذه الأصوات المرعبة ! ماذا حدث؟ " في لمح البصر ابتلعت الأصوات لهفة الفضول الجشع والشهوة الجامحة ، ابتلعت كل الأحلام الذهبية ، وابتلعت كل القداسة والجمال ، كأن ريحا حادة من اليأس بدأت تهب في كل الاتجاهات ، كما لو كان العالم بأكمله يغرق ببطء في هاوية الظلام .
لينتقم من البشر ملأ زيوس العلبة بكل المصائب والعاهات والمآسي والكوارث والأمراض ، وضع بداخل العلبة الخادعة الحزن ،اليأس، الأوبئة، المرض، الاشمئزاز، الجوع، الشيخوخة ، الموت ، الفقر ، الخداع ،النفاق إلخ كما وضع بداخلها الأمل كذلك.
بسبب فضولها حررت باندورا كل الآلام ،أخرجتها إلى الوجود وجعلتها قريبة من عالم البشر ، حاولت أن تتدارك الأمر، حاولت إغلاق العلبة ،لكن الآلام كانت قد انتشرت .. الأمل هو الشيء الوحيد الذي بقي بداخلها ،لكن الأمل ذاته سيتحول إلى أكبر ألم تحتمي به البشرية لتتعايش مع كل الآلام. لم يستعد زيوس النار من البشر ،بل ابتكر عقابا مؤلما

سحب كل السعادة من الحياة ، حكم على البشر بأن يحملوا أعباء ألم مأساوي إلى الأبد. لكن ماذا عن بروميثيوس ؟ ما هو العقاب الذي خص به سارق النار ومحب البشر ؟
أسر زيوس بروميثيوس ، ثم كلف هيفايستوس بصناعة سلسلة حديدية قوية ، ربطه بها وعلقه على قمة جبل القوقاز ، وحكم عليه حكما مأساويا أبديا ، سيعيش بروميثيوس الألم الأزلي ، سلط عليه نسرا ينهش كبده نهارا ليتجدد ليلا ، فيعود النسر مرة أخرى في الصباح لينهش نفس الكبد المتجدد ، استمرت معاناة بروميثيوس زمنا طويلا إلى أن ظهر المخلص هرقل لينقده من هذا العذاب.

## 7- أسطورة الخلق الزراديشتية

الزرادشتية واحدة من أقدم الديانات التوحيدية في التاريخ، أثرت بشكل كبير على الديانات التوحيدية المعروفة . ظهرت في القرون الأولى قبل الميلاد بمنطقة بلاد فارس، التي تمتد في أجزاء من إيران الحالية، والعراق وأفغانستان وباكستان. يعود تأسيسها إلى زرادشت، ويرجح أنه عاش في الفترة بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

كان زرادشت (المعروف أيضًا باسم زرتشترا) كاهنًا في الإمبراطورية الفارسية القديمة، وحسب النصوص المقدسة فقد ظهرت لزرادشت روح "فوهو مانا" ،وأمرته بنشر رسالة الإله الواحد أهورا مازدا ، القائمة على الخير ومحاربة الشر وتقديم المساعدة للفقراء . بعد هذا اللقاء مع الروح المرسلة ، بدأ زرادشت يبشر برسالة أهورا مازدا، خالق العالم والبشر بيدي "سبنتا ماينيو " (الروح الخلاقة) وخالق بقية الكون ، عن طريق الأرواح السخية الخالدة المقدسة.

لم تلق دعوة زرادشت الاستجابة من طرف الشعب الفارسي ، بالعكس تعرض للاضطهاد ، وأجبر على الخروج من أرضه ، ولكن بإصراره وتشبثه بإيمانه، كسب بعض الأتباع المتحمسين الذين حفظوا النصوص المقدسة ، وجعلوا منها كتابا دينيا مقدسا شاملا سموه الأفستا.

بعد انتشار دعوته ، تم اعتماد الزرادشتية دينا رسميا بفارس ،في عهد سلالة الأخمينيين ،وهم سلالة حكمت الإمبراطورية

الفارسية القديمة لفترة تمتد من العام 550 قبل الميلاد حتى العام 330 قبل الميلاد .

تنقل النصوص المقدسة الزراديشتية تفاصيل قصة الخلق ، وكغيرها من الأساطير تنطلق القصة من لحظة ما قبل الخلق ، لم يكن في الكون شيء سوى قوتين ، الأولى يمثلها الإله أهورا مازدا،ويلقب بالرب الحكيم، يمثل الحق والنور الأبدي، القوة الثانية يمثلها أنغرا مينيو (أو أهريمان) وهو الشيطان ، يعيش في الظلام المطلق ،ويمثل قوى الشر والخبث التي تتحدى قوى الخير ،ولم يكن يوجد سوى الفراغ بين القوتين.

تتميز قصة الخلق الزراديشتية عن باقي الأساطير ، بكونها تتحدث عن البداية قبل البداية ، أي تتحدث عن البداية التي سبقت ظهور إله النور ، رب الحكمة أهورا مازدا . في كتاب بونداهيشن الكبير ،الذي يعتبر مصدرًا مهما لفهم العقيدة والتعاليم الزرادشتية، توجد فيه مجموعة من التفسيرات الكونية والأساطير الخاصة بالخلق، والتاريخ والكون، والأرواح والجنة والنار ، كما توجد فيه موضوعات متعلقة بالإلهة والخلق ، والحياة البعدية والمجتمع والعدالة وغيرها.. في هذا الكتاب جاء ذكر لحظة ما قبل الأله أهورا مازدا ، وهي لحظة إله الزمن الذي يعتبر أول كائن إلهي، يمارس الخلق .

لقد خلق إله الزمن النار والماء، وعلى الرغم من تناقضهما فقد تمكن من الجمع بينهما ليخلق أهورا مازدا ، الإله الواحد الأوحد ،رب الحكمة والنور والحق ، ليخوض معركته الأبدية ضد إله الظلام أنغرا ماينيو أو أهريمان.

عرف أهورا مازدا وأنغرا ماينيو المتصارعان بأسماء مختلقة في الثقافة الفارسية ، حمل أهورا مازدا الأسماء التالية : أوروماسديس، أورمزد، هورمزد، وهورموز. ويعني أهورا مازدا في اللغة الأفستية المقدسة، "الرب الحكيم". أما أنغرا ماينيو، فقد عرف باسم أهريمان ، ويعني "روح التدمير" واشتهر بالكذب أو "دروج" وهي لفظة فارسية، تتعارض مع لفظة "أشا" التي تعني "الحقيقة" .

وردت تفاصيل خلق الكون في الكتب المقدسة الزراديشتية ،منها ما جاء في كتاب الأفستا (Avesta) وأحيانا يشار إليه باسم الفند (Vend) . يُعتبر الأفستا الكتاب الأكثر أهمية في الزرادشتية ، يحتوي على مجموعة من النصوص الدينية والشعرية والتراتيل والأدعية ، التي تعود إلى العصور القديمة، كما يتضمن العديد من المفاهيم والمعتقدات الأساسية ، بما في ذلك الاعتقاد بوجود إله واحد (أهورا مازدا) والصراع الأبدي بين الخير والشر، إضافة إلى العديد من القوانين والأوامر، التي يجب أن يمارسها المؤمنون والتقيد بها في حياتهم اليومية، كما تناول الكتاب حديثا مفصلا عن الكوسموغونيا Cosmogonie أو علم الكون .

في البداية كما تحكي أسطورة الخلق الزراديشتية ، كان العدم ، وبداخله وجدت قوتان متناقضتان هما : أهورا مازدا وأنغرا مينيو ، كانا منفصلين عن بعضهما بواسطة فراغ لانهائي ، تبدأ عملية الخلق حينما هاجم إله الظلام أنغرا مينيو إله النور والحق ،حيث أنشأ أهورا مازدا ساحة المعركة التي ستشهد حروبا ضارية متعبة وطويلة بين القوتين المتناقضتين.

في الأسطورة امتدت المعركة بين الإلهين المتناقضين الممثلين للخير والشر طيلة تسعة آلاف سنة، بعد مضي ستة لم تفرز الثلاثة آلاف سنة الأخيرة لم من المعارك منتصرا ، ظلت الكفتان متوازنتين بين أهورا مازدا و أنغرا مينيو ، في الأخير تنتهي المعركة بانتصار أهورا مازدا على روح الشر.
بعد أن رجحت كفة النور على الظلام ،قرر إله الحق ورب الحكمة ،إنشاء خليق جديد مختلف ، وكان ذلك عبر مراحل : أولا شكل الإله السماء من المعدن، ظهرت ساطعة ومشرقة، ثانياً خلق الماء النقي، ثالثاً خلق الأرض مسطحة بدون جبال أو وديان، رابعاً خلق النباتات رطبة وحلوة بدون لحاء أو أشواك، خامساً خلق الحيوانات الكبيرة والصغيرة، ثم خلق أول إنسان، اسمه "غايومارد"، كان وسيما وطويلا ، وأخيراً خلق النار ووزعها على خلقه بأكمله .
تذكرنا مراحل الخلق الزراديشتية، بمراحل الخلق كما وردت في سفر التكوين الإصحاح الأول، وسفر التكوين هو الكتاب الأول في العهد القديم للديانات الإبراهيمية، ويسمى أيضًا سفر الخلق لأنه يروي قصة خلق الكون والبشر ويتحدث عن العلاقة بين الله والإنسان ، وقد وردت مراحل الخلق في سفر التكوين كما يلي : اليوم الأول - خلق الله النور وفصل بين النهار والليل.
اليوم الثاني - خلق الله السماء للفصل بين السماء والأرض.
اليوم الثالث - أمر الله المياه على الأرض بالانصراف إلى مكان واحد لتظهر اليابسة وينمو النبات.

اليوم الرابع - خلق الله الأجرام السماوية لتفصل بين النهار والليل والفصول.
اليوم الخامس - خلق الله الطيور في السماء والأسماك في الماء.
اليوم السادس - خلق الله الحيوانات والبشر.
بعد أن أنهى أهورا مازدا عملية الخلق ، ألقى أنغرا مينيو روح الشر نظرة من عالمه المظلم على العالم الجديد الذي اصطبغ بنور الخالق ، شعر باستياء وغضب كبيرين ، لكن رب الحكمة أشفق عليه فوجه إليه رسالة يدعوه فيها إلى الاعتراف بجمال وروعة خليقته ،قال له: "روح الشر! قم بمساعدة ما خلقت وسبح لها حتى تكون خالدًا".
رفض أنغرا مينيو التسبيح للإنسان الجديد، ورد وهو في حالة غضب شديد: "لماذا يجب أن أساعد ما خلقت؟ لماذا يجب أن أسبح له ؟ أنا أقوى! سأدمرك أنت وخلقك إلى الأبد." ثم انزوى في ظلامه اللامتناهي يشكل الشياطين والساحرات والوحوش لمهاجمة النور الأبدي. كان الرب الحكيم العليم يعلم أن أنغرا مينيو خلق الشياطين لتدمير خليقته الصالحة ، وكان يعلم أيضًا أن المعركة ضد الظلام ستكون أبدية ،لهذا خلق ستة أرواح وهي الأحياء الأبدية المقدسة لحماية مخلوقاته من إله الظلام.
خلق رب الحكمة أول روح مقدسة سماها خشترا ، تمثل السلطة الصالحة وهي حارسة السماء، ثم خلق هاورفاتات روح السلام والكمال وهي حارسة المياه، بعدها خلق سبنتا آرميتي وهي روح التفاني المقدس وحارسة الأرض، ثم خلق

الروح المقدسة أمريتات وهي روح الخلود وحارسة النباتات. وخلق أيضا فوهو مانا وهي روح العقل الصالح، وخلق وآشا فاهيشتا وهي روح العدل وحارسة النار، وأخيرًا جعل الرب الحكيم روحه المقدسة حامية للبشر. لم يتقبل أنغرا مينيو إله الشر ما يحدث على الأرض ، غضب أكثر من أي وقت مضى ثم صاح: "أهورا مازدا! سأدمرك وكل مخلوقاتك. لن تنتصر أبدًا"!

وهكذا ستنتقل المعركة بين القوتين المتناقضتين إلى عالم الأرض، هاجم أنغرا مينيو صحبة شياطينه مخلوقات الرب الحكيم ، حاول أن يدمر الماء ،لكنه لم يتمكن فأضاف إليه الملوحة فقط ، حاول أن يدمر الأرض ، لكنه لم يتمكن فوضع عليها الجبال والوديان فقط ، حاول أن يدمر النباتات ولكنه لم يتمكن ، فوضع لها لحاء وأشواكا فقط ، حاول أن يدمر الحيوانات لكنه لم يتمكن فوضع لها قرونا فقط.

بعد أن فشل في تدمير العالم ، خلق أنغرا مينيو مينيو الحزن ليفسد السعادة التي خلقها الرب الحكيم، وخلق الألم ليفسد المتعة، وخلق التلوث ليفسد الطهر والنقاء، وخلق الموت ليفسد الحياة ، في الأخير هاجم مع شياطينه الإنسان الأول جايومارد وخلق له المرض والموت.

سيصاب جايومارد الإنسان الأول بالمرض ثم يموت ،أحس أنغرا مينيو إله الظلام الأبدي بنشوة الانتصار، وظن أنه دمر البشرية وقضى على النور، لكنه لم يكن يعرف أن نبتة الراوند خرجت من عظام جايومارد حينما مات ، ونبتة الراوند (Rue)نبتة عشبية معمرة تنتمي إلى الجنس العشبي،

تشتهر بأوراقها الصغيرة المنقسمة وزهورها الصفراء الصغيرة ورائحتها القوية المميزة.
بعد أربعين عامًا على موت الإنسان الاول ،خرج من نبتة الراوند رجل وامرأة، هما ماشيا وماشيانا . .
يُعتقد أن ماشيا هي الروح العاقلة أو الذات الحقيقية للإنسان، بينما ماشيانا تشير إلى التوجه أو السعي لتحقيق الاتحاد مع الروح العليا.. تعتقد الزراديشتية أن الإنسان يولد بروح نقية سامية تتوجه نحو الخير والحق، وهو مسؤول عن قراراته واختياراته، أنجبت ماشيانا خمسة عشر زوجًا توأمًا ، تشتتوا في العالم ليكونوا الأجناس البشرية المختلفة ، وقد عاهدا الرب بأن يخلصا له العبادة وأن يقدما له مع أبنائهم المساعدة والعون في معركته الأبدية ضد روح الشر والدمار..
حينما نقارن بين الزراديشتية والديانات التي ظهرت في فترات متباعدة، أو متقاربة نسبيا في بلاد الرافدين والإغريق ومصر القديمة ،يظهر الفارق شاسعا بينها ، تبدو الزراديشتية ديانة ناضجة ومكتملة ، لم تستطع الديانات القديمة أن تؤسس علاقة مباشرة واضحة بين الخالق والمخلوق ، عكس الزراديشتية التي أسست لعلاقة مباشرة حميمية بين السماء والأرض ،أو بين الخالق والمخلوق ،علاقة تضبطها وتؤطرها النصوص المقدسة التي يعتقد أنها منزلة من السماء على زرادشت – النبي، وتم جمعها في كتاب حمل اسم الأفستا.
منحت معتقدات الزرادشتية حرية الاختيار للإنسان، جعلت منه كائنا مخيرا وليس مسيرا ، هو حر في أن يختار بكل حرية موقعه ، إما أن يناصر الخير ويتضامن مع إله النور

أهورا مازدا، أو يناصر الشر فينضم إلى أنغرا ماينيو (المعروف أيضًا باسم أهريمان) إله الظلام . المؤمنون الذين ناصروا آهورا مازدا اختاروا طريق الأشا (الحق) ليمارسوا الأعمال الصالحة، كما اختاروا أن يكرسوا حياتهم لنصرة الصدق والإحسان والحب والاعتدال دون انتظار مكافأة في الدنيا ، لأنهم سيحصلون على الجائزة الكبرى بعد الموت ، عندما يفتح لهم إله النور أبواب البيت الغناء أوالجنة الأبدية.

وبما أن أنغرا مينيو إله الظلام يتقن الخداع والغش والكذب والغواية والإغراء ،سيتمكن من استمالة فريق من البشر ليصرفهم عن نور الحق، ويسقطهم في مهاوي الكذب والزيف والخداع ، لكن عاقبتهم ستكون مأساوية ، إذ سينتقلون بعد الموت للعيش في بيت الأكاذيب أو جهنم ، لكن بفضل صفاته العديدة ، كالكرم والحلم والرحمة ، سيتجاوز إله النور عن أخطاء الكافرين به ويغفر لهم ذنوبهم ويشملهم برحمته ، فيخرجهم من بيت الأكاذيب أو جهنم ، ليدخلهم البيت الغناء أو الجنة الأبدية .

طريق الجنة في الرزراديشتية سهل وواضح ،يعبره المؤمن بإخلاصه في عبادة الرب ، واتباع تعاليم الكتاب المقدس ، وممارسة طقوسه التعبدية بشكل يومي ومنتظم، و تعد صلاة سودري/كوستي ،من أهم الطقوس التعبدية للزرادشتيين ، وهي صلاة أساسية ولازمة مفروضة على كل المؤمنين ، وسميت بهذا الإسم لأن على المصلي أن يلتزم بطقوس دقيقة ،أهمها ارتداء ما يسمى السودري ،وهو قميص أبيض مصنوع من القطن، يلبس مباشرة على الجلد ويرمز إلى

النقاء والطهارة والالتزام بتعاليم الديانة ، أما الكوستي فهو حزام صوفي يوضع على الخصر. .
تصحب الصلاة بتلاوة سلسلة من التراتيل الخاصة، ويُعتقد أن الصلوات تمنح المؤمن قوة وحماية روحية لمواجهة الشر ، كما تعزز الروابط مع الله. تبدأ تنشئة الطفل على أداء الصلاة ، منذ وقت مبكر ابتداء من السنة السابعة من العمر ، وتستمر تربيته على الطقوس الدينية لتكون صلاته صحيحة طيلة خمس سنوات كاملة ، وتتضمن الغسل اليومي قبل أية صلاة ،وهذه التنشئة واجبة وإلزامية لجميع العائلات.
تركز الطقوس التعبدية الزراديشتية ، على العبادة والتفاني في خدمة الله ، والحفاظ على الحياة النزيهة ومكافحة الشر ، وأداء الصلوات اليومية التي يُعتقد أنها تساعد على توجيه الفكر والروح نحو الله، وتقرب المؤمنين منه، وتتم الصلاة بشكل يومي ومنتظم في أوقات محددة ،وتشتمل على تلاوة الأدعية والتراتيل .لا توجد تعليمات محددة بشأن عدد الصلوات اليومية ، ولكن الشائع أن صلاتهم تقام ثلاث مرات في اليوم ،في الصباح والظهيرة والمساء، ويُعتبر الاغتسال قبل الصلاة أمرًا إلزاميا وضروريا لتحضير الروح والجسد للاتصال بالله.
تتضمن عملية الاغتسال أو الوضوء ، غسل اليدين والوجه والفم والأنف والأذنين والرجلين بالماء النقي، ويتم ذلك بشكل متكرر باستخدام الماء الطاهر، يجب أن يتم الاغتسال بعناية واحترام ،وفقًا للتعاليم الزراديشتية ، كما يجب أن يكون الفرد

صادقًا وملتزمًا بالأخلاق والقيم الصالحة في حياته اليومية بشكل عام و أثناء أداء الصلاة .
يعتبر الصوم في الزراديشتية أحد العبادات الهامة ، إنه وسيلة لتطهير الروح والجسد، وتقوية الارتباط بالله وتحقيق التقوى ، يوجد نوعان رئيسيان من الصوم: الصوم اليومي: يشمل الامتناع عن تناول الطعام والشراب من الشروق إلى الغروب، ويعتبر هذا النوع من الصوم واجبًا على الأئمة والكهنة وبعض المؤمنين المتفانين.
الصوم الموسمي: يعتبر هذا النوع من الصوم مناسبة مهمة للتطهير والتجديد الروحي، تتم ممارسته في فترات محددة خلال السنة، مثل أيام الاحتفالات الدينية والأعياد المهمة، خلال هذه الفترات يتم الامتناع عن تناول الطعام والشراب لمدة محددة، يتطلب الصوم الزراديشتي التزامًا بالنقاء والتأمل والانتقال إلى الروحانية .
تعتقد الزراديشتية بالحياة بعد الموت ، تتجه الروح إلى السماء في انتظار الحساب النهائي الذي سيحسم مصير الفرد، لهذا يحرص المؤمنون على احترام الحياة الدنيا ،ويسعون للعيش فيها بطريقة تنسجم مع تعاليم الدين ،خاصة وأن زرادشت أخبرهم بيوم القيامة في نهاية الزمان ، حيث سيتم اقتياد جميع البشر عبر جسر ضيق إلى أن يصلوا عند سبنتا ماينيو ليحكم على كل فرد حسب أعماله في الدنيا ، ومن أعلى الجسر الضيق سيسقط أتباع روح الشر في حفرة كبيرة من نار ، بينما سيرتقي أتباع أهورا مازدا إلى "بيت الهدف الأفضل" وهو النسخة الزرادشتية من الجنة.

حسب الأساطير والحكايات الزرادشتية، قام زرادشت برحلة إلى السماء على متن حصان مجنح للقاء الله ، وقد تم استقباله من طرف الإله أهورا مازدا ، أطلعه على العديد من الأسرار وقدم له المعرفة الروحية التي شكلت أساس الدين الزرادشتي، لذا اعتبر زرادشت نبيًا ومؤسسًا لهذه الديانة ، تلقى وحيا من الإله بواسطة روح كانت تزوره ، و قام برحلة فضائية إلى السماء العليا ليأخذ التعاليم الربانية ثم أنزلها إلى الأرض ، وكلف بنشرها بين بني البشر.

## 8- أسطورة الخلق الأمازيغية

الأمازيغ، أو "الشعب الحر"، هم سكان شمال أفريقيا الأصليون. وفقًا للأساطير ، تم خلق الأمازيغ من المحاربين والشعراء على يدي الإله آمون ،وهذا ما جعلهم مدافعين شرسين عن أرضهم وثقافتهم، قاوموا الغزاة على مر التاريخ، بما في ذلك الرومان والعرب والأوروبيين.

الأمازيغ شعب بدوي ، يسكن مناطق تمتد من مصر إلى جزر الكناري بالإضافة إلى المناطق الجنوبية للصحراء مثل النيجر ومالي ، كانوا يُعرفون في العصور القديمة باسم "أمازيغ" أو "إمازيغن" ، وهم من أقدم سكان شمال أفريقيا. استمرت أساطيرهم الغنية لآلاف السنين، لم تستطع التأثيرات الحضارية أن تطمسها بل العكس هو الذي حصل إذ نجد أثرها واضحا في المعتقدات الدينية للمصريين القدماء.

تاريخ شعب الأمازيغ في شمال أفريقيا طويل ومتنوع، يتألفون من مجموعة كبيرة من القبائل غير العربية مرتبطة في ما بينها باللغة والثقافة . أرجع علماء الآثار أصولهم إلى ثقافة وحضارة شمال أفريقيا التي يعود تاريخها لأكثر من عشرة آلاف سنة. ، أشار إليهم المصريون لأول مرة قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة تحت اسم "تيميهو"، كما أشارت النصوص الفينيقية واليونانية والرومانية إليهم أيضًا.

منذ العصور البدائية، كانت أراضي الأمازيغ مفترق طرق لشعوب إفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط ، غزا القرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون والعرب والترك والإسبان

والفرنسيون والإيطاليون أجزاءً من أراضيهم. لم يشهد الأمازيغ أبدًا هوية سياسية وثقافية موحدة، هناك العديد من ممالك الأمازيغ عاشت جنبًا إلى جنب في مناطق مختلفة من شمال إفريقيا وإسبانيا، ولكن لم توجد "إمبراطورية أمازيغية موحدة ."

على مر القرون امتزج الأمازيغ مع العديد من الجماعات العرقية، بما في ذلك العرب، وبسبب ذلك تم التعرف عليهم بشكل أكبر من خلال اللغة بدلاً من العرق، لغتهم واحدة تعد من أقدم اللغات في العالم ، وتنتمي إلى الفرع الإفريقي من عائلة اللغات الأفروآسيوية، إلى جانب اللغة المصرية القديمة.

على الرغم من أنها لم تتشكل أبدًا خارج العبادات المحلية، مثل كل الحضارات الأخرى، فقد شكلت الأسطورة محور الثقافة الأمازيغية إلى درجة أنها أصبحت تقليدا غنيا ومتنوعا ، تم توريثه وتناقله عبر الأجيال في شمال أفريقيا.

تقدم الأساطير نظرة عن معتقدات وعادات وقيم شعب الأمازيغ وتعكس ارتباطهم بالطبيعة والأرواح والأجداد.

الأسطورة الأمازيغية غنية وتمثل نظام معتقدات يدور في فلك آلهة متعددة ، أنتج الأمازيغ بعض أساطيرهم بفعل التواصل مع أساطير الحضارات القريبة منهم مثل الحضارة المصرية القديمة أو الوافدة عليهم مثل الحضارة الفينيقية واليهودية والإيبيرية واليونانية القديمة، وأحدث تأثير جاء من الأساطير العربية عندما تم تحويل الأمازيغ إلى الإسلام في القرن التاسع.

ماتزال إلى اليوم بعض المعتقدات الأمازيغية التقليدية والوثنية موجودة في ثقافتهم وتقاليدهم ، خاصة في الجزائر حيث تظل العبادات القديمة قائمة بدرجات متفاوتة. كانت الصخور مقدسة بالنسبة للعديد من الشعوب البدائية، بما في ذلك الأمازيغ ، تحدث الكاتب اللاتيني أبوليوس في القرن الثاني بالإضافة إلى القديس أوغسطين، أسقف هيبو ريجيوس (الاسم القديم لمدينة عنابة في الجزائر)، عن عبادة الصخور بين أمازيغ شمال إفريقيا، كما ذكرت بعض المصادر أنهم عبدوا الموتى والنجوم ولازال يتواجد أشهر نصب صخري في شمال غرب إفريقيا يعرف باسم مزورا (أو مسورا) ، وفقًا للأسطورة هذا النصب الصخري هو مقبرة الملك البربري الأسطوري أنطيوس، وتم اكتشاف نصب آخر من الميجاليث عام 1926، جنوب الدار البيضاء بالمغرب توجد به نقوش جنائزية بالخط الليبي - البربري المعروف باسم تيفيناغ .

تشير القبور الموجودة إلى أن الأمازيغ كانوا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت ،وقد تطورت قبورهم من مجرد هياكل بدائية إلى هياكل أكثر تعقيدًا، اتخذت شكل أهرامات انتشرت في شمال أفريقيا، أشهرها الهرم النوميدي والهرم الموريتاني القديم ، المعروف أيضًا باسم هرم تومبكتو أو هرم تشينغيت، وهو هيكل قديم يقع في صحراء ساحلية شمال غرب موريتانيا، يُعتقد أنه يعود إلى الفترة ما بين القرن الأول والقرن الثاني الميلادي، وهو جزء من تجمع أثري أكبر في المنطقة . يتميز الهرم الموريتاني القديم بتصميمه المميز، له قاعدة مربعة ويصل ارتفاعه إلى حوالي 17 مترًا. يعتقد أن

الهرم قد تم استخدامه لأغراض دينية أو رمزية أو قد يكون له علاقة بالجوانب الفلكية والثقافية المحلية ، وعلى الرغم من أن الهرم الموريتاني القديم لا يتمتع بنفس الشهرة العالمية التي تتمتع بها أهرام مصر، إلا أن له أهمية كبيرة من حيث القيمة الأثرية والتاريخية، تم تسجيله كموقع تراث عالمي من قبل اليونسكو عام 1988.

هناك تشابه ملحوظ بين الأساطير الأمازيغية القديمة والمصرية ، وهناك آلهة متشابهة ومتداخلة بين الحضارتين . كان الأمازيغ جيرانًا للمصريين، حيث كانوا يسكنون أراضي ليبيا منذ آلاف السنين ويُعتقد أن بعض آلهة المصريين القديمة، مثل إيزيس وسيت، كانت تُعبد في الأصل من قبل الأمازيغ، كما كان أوزوريس واحدًا من الآلهة المصرية التي كان يسجد له في ليبيا، و يعتقد بعض العلماء أن أوزوريس كان إلهًا ليبيًا في الأصل، كما يُزعم أن الأمازيغ لم يأكلوا لحم الخنزير بسبب ارتباطه بسيت، ولم يأكلوا لحم البقرة بسبب ارتباطها بإيزيس ،وقد ذكر هيرودوت هذه الأخبار: "إن لحم البقرة لم تأكله أي من القبائل الليبية، ويمتنعون عنه لنفس السبب الذي يمنع المصريين، أي تكريمًا لإيزيس إلهة المصريين التي يعبدونها بالصيام والاحتفالات.".

كما يعتبر الباحثون أن نيث الإلهة المصرية هي كذلك ذات أصل ليبي ، ويقال إنها هاجرت من ليبيا لتؤسس معبدها في سايس بدلتا النيل ، تقول بعض الأساطير إن نيث ولدت حول بحيرة تريتون وهي تونس الحديثة. نيث هي إلهة مصرية قديمة تعتبر رمزًا للأمومة والحياة، تُصوَّر عادة على شكل امرأة تحمل عصا السلطة في يدها، وقد تظهر وهي تضع

تاجًا أو رأس أسد على رأسها ،تعتبر إلهة السماء والأرض والماء، كانت لها علاقة وثيقة بالحياة والخصوبة. يُعتقد أن الإلهة نيث كانت أمًا لجميع الآلهة والبشر، وكانت لها عدة مراكز ثقافية مهمة مثل سيسيلي وسايس وإبسوس ،وتُعرَف بألقاب مختلفة مثل "سيدة السماء" و"الأم العظيمة "

الملاحظ أن بعض الآلهة المصرية كانت تصوّر بصفات أمازيغية (ليبية قديمة)، مثل "أمنت" (أو أمونت) التي كانت تُصوَّر بريشتين، وهما الزينة الطبيعية للأمازيغ القدماء كما يظهر في رسومات المصريين القدماء. وأمنت هي إلهة من الأساطير المصرية القديمة، إلهة الحب والجمال والخصوبة. تُصوَّر عادةً على شكل امرأة شابة ذات جمال ،تُعتَبر الأم الروحية لملوك مصر، وكان لها دور هام في الطقوس الملكية والتنصيب الملكي. تعددت قصص وأساطير أمنت شملت حكايات الحب والزواج والجمال كما تحدثت عن دورها في الخلق والحياة، وتُعتبر مصدرًا للقوة الإلهية الأنثوية والخصوبة، وكانت تُعبد في معابدها في مختلف أنحاء مصر القديمة.

ويعتبر الإله "أمون" من أهم الآلهة الذي له حضور مشترك بين الثقافة المصرية والأمازيغية . أمون هو ملك الآلهة وإله الرياح، عرف عند المصريين القدماء باسم آمون- رع، وعند الإغريق باسم زيوس- آمون، وعند الفينيقيين باسم بعل- آمون ، كان يُصوَّر عادة في شكل بشري، وأحيانًا برأس كبش، وقد تم العثور على رسومات مبكرة للأكباش في شمال أفريقيا تعود إلى 9600 قبل الميلاد و7500 قبل الميلاد. أشهر معابد

أمون وجدت في ليبيا القديمة وفي سيوة بمصر، وهي واحة لا تزال مسكونة من طرف بعض الأمازيغ، ولكن معظم المصادر الحديثة تتجاهل وجود آمون في الأساطير الأمازيغية، إلا أنه كان يُكرَّم من قبل الإغريق القدماء ، وتم دمجه مع إله الفينيقيين بعل بسبب التأثير الليبي.

استمر التداخل بين آلهة الأمازيغ والآلهة الفرعونية والإغريقية والرومانية إلى حد التطابق ، ما يفصح عن التلاقح الثقافي والحضاري بين شعوب شمال إفريقيا وشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويمكن أن نقف على نموذج يقربنا أكثر من هذا التلاقح الثقافي بين تلك الشعوب ،إنه نموذج الإلهة إفري (أو إيفري) وهي إلهة أمازيغية قديمة كانت تعبد في المنطقة الأمازيغية التي تمتد على طول شريط شمال إفريقيا، بما في ذلك المغرب والجزائر وليبيا وتونس. تُعتبر إفري إلهة الحب والجمال والخصوبة والحرية في الثقافة الأمازيغية، و تصوَّر عادةً على شكل امرأة جميلة ذات شعر طويل، تُعبَد كمصدر للقوة الأنثوية والجمال الروحي، وتظهر عادةً مع إله آخر يُدعى "أماوال" وهو الإله الذكري المتوازن.

تراوحت قصص وأساطير إفري في الثقافة الأمازيغية بين حكايات الحب والرومانسية إلى دورها في الحرية والتحرر، و يُعتَقَد أنها تعيش في الجبال بين المناظر الطبيعية الخلابة، وتُعد جزءًا من الثقافة الأمازيغية الغنية ، كما تظهر في الفنون التقليدية والشعر والأغاني والاحتفالات الثقافية، و يُحتَفى بها

في المناسبات الدينية والاحتفالات العامة، وتُعد رمزًا للقوة الأنثوية والهوية الأمازيغية.
في الثقافة الفرعونية تشترك الإلهة حاتحور في نفس الصفات مع إفري الأمازيغية ، حاتحور هي إلهة متعددة الأوجه وتعتبر إلهة شاملة تجمع بين عدة جوانب ومفاهيم، بما في ذلك الحب والجمال والخصوبة والموسيقى والرقص والفرح، تُصوَّر عادةً على شكل امرأة تحمل قرون بقرة على رأسها، قد تظهر أيضًا في صورة امرأة جميلة ذات شعر طويل بقرنين صغيرين يختفيان بين الشعر، وتظهر أحيانًا مع إله آخر يُدعى حورس، وهو إله السماء والقوة الذكورية، تعتبر حاتحور إلهة الحب العظيمة ، وكان لها دور مهم في الحياة اليومية والاحتفالات والطقوس المصرية .
أما عند الإغريق فقد ظهرت إفري الأمازيغية تحت اسم أفروديت، وعند الرومان ظهرت تحت اسم فينوس ،وكلتاهما مثلتا آلهة الحب والجمال والرغبة الجنسية والجمال الجسدي.
تُصوَّر أفروديت وفينوس عادةً على شكل امرأة شابة جميلة ومثيرة، وقد ظهرت أفروديت مرافقة لإله الحب إيروس .
وكما كان للفراعنة إله الشمس رع وللیونان هيليوس فقد كان للأمازيغ إلها للشمس ويسمى قُرْزيل (Gurzil) ويُعتَقَد أنه كان محور عبادة لدى القبائل الليبية القديمة، كما يُعتَقَد أن قُرْزيل كان إلهًا للشمس والحرارة والجفاف والجبال، وقد عبدوه لتحقيق الخصوبة والوفرة. لا تتوفر الكثير من المعلومات عن قُرْزيل، وذلك بسبب قلة المصادر المكتوبة عن الأساطير الليبية القديمة، ومع ذلك تشير الدراسات والأبحاث إلى وجود

آثار وتمثيلات فنية قديمة تمثل قُرْزيل وترتبط به ،تظهر على الصخور والمقابر والأواني الفخارية، وعادة ما يُصوَّر على شكل رجل مُسن يحمل عصاً أو رمحًا.

تعكس عبادة قُرْزيل وجود العلاقة القوية بين الليبيين القدماء والبيئة المحيطة بهم، وتعكس الأهمية الكبيرة للشمس والطبيعة في حياتهم، يُعتَقَد أن الأمازيغ قدموا لإله الشمس قُرْزيل القرابين وأقيمت له الاحتفالات والطقوس لتجنب شره وتأمين الخير والحماية واستدامة الرخاء في حياة الناس والعطاء في الطبيعة.

في الثقافة الأمازيغية، يعتبر إله "أنزار (Anzar) "إلهًا للأمطار والرطوبة، ويعتقد الأمازيغ أن أنزار هو القوة الرئيسية المنتجة للأمطار والمواسم الزراعية الجيدة، عبرت التقاليد الأمازيغية عن أنزار بأشكال مختلفة وفي مناطق مختلفة، كما تختلف الشعائر والاحتفالات المرتبطة به من قبيلة لأخرى. يعتبر أنزار واحدًا من العديد من الآلهة والأرواح التي تحتفل بها الثقافة الأمازيغية، وتؤكد على الروابط العميقة بين الطبيعة والثقافة والدين لدى الأمازيغ.

تقول الميثولوجيا الأمازيغية، التي تعتبر من أقدم الميثولوجيات في العالم، إن الإله الأعلى خلق الكون وجميع مكوناته، ووفقًا لأسطورة الخلق الأمازيغية، فإن الإله الأعلى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء، والجبال والنباتات والحيوانات وفي الأخير خلق الإنسان.

تعد "تيمازيغت " من أبرز الشخصيات في الميثولوجيا الأمازيغية ، يعتقد الأمازيغ أنها أول امرأة في العالم وأم كل

الأمازيغ، كما تُعتبر رمزًا للحرية والاستقلالية، وتشكل عنصرا مهما في الهوية الأمازيغية ، كما تعكس قيمها الثقافية.
على الرغم من عدم وجود توثيق كتابي للميثولوجيا الأمازيغية، فقد نجح الأمازيغ في الحفاظ على تلك الأساطير ، إذ تم نقلها شفهيًا بين الأجيال، إلى درجة أنها حفرت في العقل الجمعي لهذه الشعوب، وعلى الرغم من تعرض الأسطورة الأمازيغية لهجمات شرسة من طرف حضارات مختلفة، إلا أن الأمازيغ نجحوا في الحفاظ على هويتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ونجدهم إلى يومنا هذا يتمسكون بثقافتهم بشكل كبير، سواء كانوا من الأمازيغ الجائلين في الصحراء أو الذين فضلوا الانعزال والاستقرار في الجبال.
بالرغم من أن الأساطير الأمازيغية لم يتم توثيقها كتابيًا ، إلا أنها بقيت حية وشائعة في الثقافة الشفاهية للشعب الأمازيغي ، وذلك بفضل الحفاظ عليها وتمريرها بين الأجيال عبر التاريخ على الرغم من محاولات طمسها من طرف الحضارات المختلفة مثل الفينيقية والرومانية والإسلامية ، ويمكن القول إن الاختلاط بهذه الحضارات كان له أثر إيجابي كذلك ، حيث لفت الأنظار إلى شمال إفريقيا وأظهر للعالم الخارجي وجود حضارة قوية مستقلة تدعى الحضارة الأمازيغية ، تحدث عنها العديد من المؤرخين والفلاسفة اليونان والرومان والأمازيغ والعرب كما ذكروا أساطيرها ، منهم هيرودوت وديودوروس الصقلي والقديس أوغسطين وابن خلدون وابن عذاري المراكشي وغيرهم.
على الرغم من رغبة الإسلام للحد من انتشار الأساطير الأمازيغية، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على الحكواتي

وتجريده من هويته المتأصلة في الوعي الجماعي الأمازيغي, بفضل هذا الحرص على الحفاظ على الهوية، تم إنقاذ عدد من الحكايات الشعبية والأساطير التي لا تزال حتى اليوم قيد الحياة تنتقل عبر الأجيال بالرواية الشفاهية . على الرغم من كل الجهود المبذولة لإنقاذ الأسطورة إلا أن الخسائر الميثولوجية الأمازيغية كانت فادحة وكبيرة، وكادت أن تؤدي إلى الزوال الكامل لهذا الكنز الفريد.

بعيداً عن الحديث عن رغبة الغزاة في طمس الأساطير الأمازيغية، يمكن القول إن الميثولوجيا الأمازيغية لا تزال حاضرة ومتجذرة في العقل الجمعي الأمازيغي، استمرت بفضل الحكواتي الذي حفظ هذا التراث الثقافي القديم من الضياع ،بفضله ظلت الحكايات الشعبية والأساطير قيد الحياة، يمكن أن نعتبر رسومات الطاسيلي وأكاكوس في الجزائر وليبيا، دليلا قويا على أصالة هذه الميثولوجيا وتجذرها في عمق التاريخ البشري ، وهي تضم رسومات ونقوشاً لعدة مخلوقات أسطورية، منها الإلهة الأم وكائنات أسطورية ورجال برؤوس الحيوانات.

إن التلاقح الثقافي والمعرفي والفكري بين الشعوب أمر طبيعي وإيجابي، ولكن يجب الإشارة إلى أن أساطير الأمازيغ بشمال إفريقيا لم تنتج عن التمازج مع الحضارات المتنوعة، بل هي أساطير خاصة بالأمازيغ، رغم وجود تقاطعات في بعض الأحداث مع أساطير أخرى عرفتها الحضارات المجاورة , تعبر الأساطير الأمازيغية عن خصوصية هذا الشعب الذي خط لنفسه هوية وثقافة تاريخية تمتح من

الأسطورة، كان دولاتور يقول :" الشعب الذي لا توجد له أساطير يموت من البرد"
يجب أن نسجل منذ الان أن أسطورة الخلق الأمازيغية تختلف عن أساطير بلاد الرافدين والفرعونية والإغريقية، لا يوجد فيها ذلك الحضور المكثفة للآلهة التي تخوض صراعا داميا في ما بينها للسيطرة على الكون ، وهي تتمتع بنسقها الأسطوري الذي يتناسب مع الأساطير البشرية التي تتحدث عن خلق الإنسان وبداية الحياة.
تركز أسطورة الخلق الأمازيغية على التساؤلات الوجودية التي أثيرت في جميع المعتقدات والمتراوحة بين نوعين من الأصول الميثولوجية. تتحدث عن الأصل النباتي الذي يقر بأن بداية خلق الإنسان انطلقت من الأرض، كما تتحدث عن الأصل الحيواني للخلق ، وفي هذه الرؤية لا تختلف مرتكزات الأسطورة الأمازيغية عن باقي الأساطير المعروفة ،فحينما ننظر إلى حالة الإدراك البشري الشبيهة بإدراك الحيوانات، يمكن العثور على هذين الأصلين بكثافة في أساطير سومر وبابل الموثقة كتابيًا في الألواح المكتشفة في منطقة بلاد الرافدين وسوريا.
بشكل عام، يمكن أن نعتبر أسطورة الخلق الأمازيغية جزءا لا يتجزأ من تراث الأساطير البشرية التي تحدثت عن خلق الإنسان وطرحت التساؤلات الأساسية حول مصدر الحياة وطبيعتها ، إلا أن الأسطورة الأمازيغية تخلو من الصراع الدامي بين الآلهة.
تقدس أسطورة الخلق الأمازيغية الأرض وتعتبرها بداية الخلق وأم البشر، ومصدر الخصوبة والماء، تتضمن الأرض

كل العناصر التي تجسد قيم الأنوثة والذكورة معا وتمثل أدوار المرأة والرجل الجنسية، يمكن أن نلاحظ وجود تقاطع بينها وبين قصص ليليث العبرية وحواء الإبراهيمية.
رغم أننا لا نعرف كيف تشكلت هذه الأسطورة، إلا أنها تعكس أصالة فكرتها وأسسها التي قامت عليها، بالإضافة إلى الأفكار المشتركة مع ثقافات أخرى.
تبدأ الأسطورة في باطن الأرض حيث يتم خلق زوجين أولين في وقت لم يكن يوجد سوى الماء والظلام ، وعلى نسق سفر التكوين العبري ، خلقا الزوجان دون أن تفتح بصيرتهما ،لم يدركا بعد ماهيتهما وطبيعة جسديهما ، كما لم يعرفا بعد معنى العلاقة الجنسية.
عن طريق الرحلة في هذا الفضاء الجديد في باطن الأرض سيصل المخلوقان إلى بركة الماء أين سيحدث السقوط المفاجئ للأنثى داخل البركة وهي تحاول أن تشرب شيئا من الماء ، فتنتبه إلى جسدها كما انتبه إليه الرجل كذلك، سيتبادلان النظرات في الجسدين العاريين ، وتخلق لدى المرأة قابلية قبول جسد الرجل ، وهكذا سيحدث في عمق الأرض أول فعل جنسي بين الذكر والأنثى ، وتكون بركة الماء هي السبب الذي شيّأ الجسد وحدد وجوده المادي، وهذا ما أدى إلى اكتشاف الجسد.
من خلال أسطورة الخلق الأمازيغية نكتشف الأب والأم الأولين ، كما نكتشف أول لحظات تشييء الجسد واكتشاف العلاقة الجنسية. عندما نستحضر أساطير الخلق التي نشأت في المشرق، نقف على نوع من التداخل بين أسطورة الخلق الأمازيغية وأسطورة الخلق في الديانات السماوية اللاحقة، في

الديانات الإبراهيمية، تحل شجرة المعرفة محل بركة الماء، وبسبب اكتشاف آدم وحواء لجسديهما تبدأ عملية التحول الكبرى في الخلق، وهو نفس ما وقع في الميثولوجيا الأمازيغية عندما يكتشف الطرفان جسديهما.

في أسطورة الخلق الإبراهيمية سيغضب الله من آدم وحواء ، ويعاقبهما بإخراجهما من الجنة ليعيشا في الأرض ويخوضا مغامرة الحياة والموت، أما في الأسطورة الأمازيغية فقد بدأ الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة في باطن الأرض، حيث سينجبان نسلا كثيرا . كان نسل الأب والأم الأولين يعيشون في باطن الأرض إلا أنهم قرروا أن يغادروا مكان الولادة ، قرروا أن يخرجوا من باطن الأرض ليستقروا على السطح

لقد قرر النسل الجديد المتكون من الذكور والإناث أن يغادروا القعر والظلام ويصعدوا إلى السطح لمعانقة النور.

تنطلق رحلة البحث عن النور والتخلص من ظلام القعر ، وسرعان ما يلوح أمامهم نور يقودهم نحو السطح أين توزع الشمس الدفء والحياة على كل الأرض. تحكي الأسطورة أن الإناث وصلن إلى سطح الأرض قبل الذكور بعدة سنوات، لكنها لا تخبرنا ما حل بالأب والأم الأولين. بمجرد ما خرجت الإناث من القعر انطلقن للبحث عن مكان آمن للاستقرار ، اخترن العيش بالقرب من ضفة النهر، كل هده الأحداث التي تحكي عنها الأسطورة تقودنا إلى الاعتقاد بأنها صيغت زمن تحول البشرية من نمط الإنتاج القائم على الرحلة إلى نمط الاستقرار، وهي تشير إلى بداية استقرار الجنس البشري في منطقة الأمازيغ بشمال إفريقيا ونمط الإنتاج المعتمد.

تروي الأسطورة أن الذكور وصلوا إلى سطح الأرض بعد سنوات من خروج الإناث، لكنهم سلكوا مساراً مختلفًا عنهن ، حيث استقروا في ضفة النهر المقابلة ، اهتموا ببناء المساكن والبيوت التي تحميهم من الأخطار، بينما اهتمت الإناث بالزراعة. تشير الأسطورة إلى بداية الاستقرار الفعلي ببناء المستوطنات التي ستتحول فيما بعد إلى قرى ومدن ودول. حمل الأبناء الذكور والإناث نفس الإشكالات الوجودية التي حملها الأبوان الأولان ، لم يكن بإمكانهم إدراك أجسادهم ولم يتمكنوا من الإدراك والوعي الذي يقودهم للعيش معا .
كما تدخلت الصدفة في تجربة الأب والأم الأولين، ستتدخل مرة أخرى حينما يرتمي الذكور في النهر للاستحمام وعيون الإناث تراقبهم ، كانت الأجساد العارية للفتيان كافية لتنتبه الإناث إلى أجسادهن ،واكتشاف الاختلاف بين الاجساد العارية وظهور الرغبة الجنسية ، كما زاد وعي الذكور بأجسادهم وتحركت فيهم الرغبة الجنسية هم أيضا ، ومع ذلك لم يحدث أي اتصال جنسي بين سكان الضفتين إلى أن جاء اليوم الذي عبرت فيه إحدى الإناث النهر ودخلت مسكنا من مساكن الجنس الآخر، ولكنها تعرضت للاعتداء من قبل ذكر مختلف عن بقية الذكور، كان ذكرا يحافظ على طبيعته الحيوانية يعيش مع أنثى ظلت هي الأخرى تحافظ على نفس الطبيعة الحيوانية ، وهما شخصيتان ستؤثثان المخيال الشعبي الخرافي بتجسيدهما لشخصيتي "الغول والغولة" الذين سيتكرر ظهورهما في الكثير من الحكايات الشعبية الأمازيغية.

وصل صوت صراخ الفتاة التي تعرضت للهجوم من طرف الغول إلى الضفة الأخرى من النهر، هرعت الفتيات الأخريات لإنقاذها، فحدث اشتباك بين الجنسين، انتهى بانتصار الفتيات، لكن رغبة استكشاف الآخر المختلف كانت أقوى، انشغلن بالتعرف على الأعضاء التناسلية للذكور ولمسها ، اشتعلت الرغبة وحدث أول اتصال جنسي بين الذكور والإناث.

تحكي الأسطورة أن الإناث كن السباقات لعقد اتصال جنسي وهن من كن يعتلين الذكور ، وهكذا اجتمع الفريقان وحدث التزاوج والزواج، وبعد فترة من اعتلاء المرأة الرجل ،تغيرت هذه الوضعية إذ أصبح الرجل هو من يتحكم في العملية الجنسية باعتلاء المرأة ، أما الذكر المتوحش، فقد تحول إلى أسد، والأنثى المتوحشة تحولت إلى غولة، سيبتعدان عن المجموعة ليعيشا في الغابة ، غير أنهما سيحتلان المخيال الشعبي إلى يومنا هذا .

تضم أسطورة الخلق الأمازيغية العديد من الرموز المميزة، منها الأرض التي تعتبر مقدسة بالنسبة للأمازيغ، فقد رأوا أنها تمثل الأم الجامعة لجميع الكائنات الحية، ونهوا عن ضربها بالأقدام خلال الاحتفالات حتى لا تتألم ، كما يتضح في هذه الأسطورة أن الأرض هي المكان الذي وُلد فيه أول زوجين وأيضًا المكان الذي احتوى مسكنهما الأول.

ويعد الماء من الرموز الأساسية في هذه الأسطورة وهو يشكل عنصرًا أساسيًا في حياة الأمازيغ، يستخدم في الزراعة وفي كل مناحي العيش اليومي، لهذا سيعبد الأمازيغ ينابيع الماء والبرك.

كما يشكل الظلام رمزًا آخر في الأسطورة، فلا يمكن فهمه إلا بعلاقته بالماء، ونشير أنه يتم التركيز عليهما معا في العديد من الأساطير القديمة البابلية والسومرية والفرعونية ، إذ يعتبران أساس كل خلق وهذا ما أشارت إليه أيضًا أسطورة الخلق الأمازيغية، حيث يمشي الأب والأم الأولان في باطن الأرض المظلم حتى يصلا إلى البركة، وهناك تنشأ رغبتهما الجنسية وتتم عملية التزاوج.

إضافة إلى هذا ، تتضمن أسطورة الخلق الأمازيغية علاقة ذات بعد رمزي مهم يجسده كل من الماء والجنس، أما الوعي بالجسد فيمنح الأسطورة بعدها الوجودي الذي وجدناه في كل الأساطير البشرية ، لقد أدرك آدم وحواء ذاتيهما بعد أكلهما من شجرة المعرفة، وهذا ما يذكر صراحة في سفر التكوين "فأكلا فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عُراة ...". وهذا ما حدث للرجل والمرأة في الأسطورة الأمازيغية، اكتشفا ذاتيهما بفضل الماء، كما حرك ماء النهر الرغبة الجنسية عند الفتيات اللواتي شاهدن الفتيان أثناء استحمامهم، وتتشابه هذه الأسطورة بشدة مع أسطورة من بلاد الرافدين نقلت إلينا تلذذ الإله "إنليل" بجمال الإلهة "سود" التي كانت تستحم قرب النهر، فضلا عن ولادة أطفالهما في العالم السفلي على قارب بالنهر.

تلعب الشمس دورًا هامًا في أسطورة الخلق الأمازيغية، وتحظى بحضور مهم في هذه الثقافة كعنصر أساسي في دورة الحياة والزراعة، وبلغت نسبة تقديس الشمس عند بعض القبائل إلى درجة جعلوها إلها، ويمكن اعتبار وضع الموتى

داخل القبور في شمال إفريقيا باتجاه الشمس مظهرا من مظاهر تعظيم مكانتها.
تروي الأسطورة أن الأم كانت الرمز الأساسي للخصوبة والحيوية، وكان لها الريادة في المجتمع الأموسي ، كانت للمرأة الأولى حق الشرب قبل الرجل ، إلا أن سقوطها داخل البركة غير الوجود كله ، وتحكي الأسطورة أن الفتيات وصلن قبل الفتيان إلى سطح الأرض ، وهن من اكتشفن اختلافهن عن الذكور وتفوقن عليهم واعتلين أجسادهم أثناء الاتصال الجنسي ، كلها إشارات تدل على أن الشعب الأمازيغي كان يعرف نظاما أميسيا .
بعد استقرار المستوطنات، حدث انقلاب في بنية المجتمع الأمازيغي، تحول المجتمع الأميسي إلى مجتمع أبيسي ،أسقط الذكر حق المرأة في الشرب وألغى تفوقها الجسدي ، خاصة بعد أن تفوق في البناء والاعتلاء الجنسي.

## 9- الأساطير وطقوس تقديم القرابين

منذ أواخر القرن التاسع عشر ،اهتم الأنثروبولوجيون وعلماء الأديان بتفسير أصل تقديم القرابين باعتباره طقسا دينيا ، ينتظر منه تعديل حالة بعض الأشياء أو تعديل حالة الشخص والظواهر التي تؤطر حياته .

فسرت بعض الدراسات التضحية أنها هدية تقدم للآلهة لكسب رضاها أولتفادي غضبها وعدائها ،ولكن مع تطور المجتمعات تغيرت الكثير من الدوافع الأساسية ، أصبح طقس التضحية يعبر عن شرف المضحي ومرتبته الاجتماعية ،ولم يعد ينتظر منها سوى تأكيد المكانة الاجتماعية للشخص أمام أفراد الجماعة التي ينتمي إليها ، كان لهذا التحول عن مقاصد الذبح أثر على البنية النفسية للأشخاص القادرين على ممارسة هذا الطقس التعبدي ، حيث تضخمت فيهم الأنا والشعور بالكمال . بموازاة هذا التفسير ، يرى المشتغلون في علم الاجتماع والاتربولوجيا ، أن الدافع الأصلي للتضحية هو ربط وتمتين أواصر التواصل بين أفراد المجموعة بإعداد وجبة من لحم القربان.

اهتم الباحثون بتفسير هذا النوع من التواصل ، بدراسة المجتمعات التوتمية التي يحضر فيها بكل قوة التوتم (Totem) وهو مصطلح يُشير إلى رمز له دلالة رمزية تُعبّر عن رابطة خاصة بين مجموعة معينة من الناس قد يكون التوتم كائنا طبيعيا أو حيوانا أو نباتا.

يعتبر التوتم عادة جزءًا من التقاليد الثقافية والدينية للمجتمعات البدائية والقبلية ،في تلك المجتمعات يُعتقد أن لكل عشيرة توتمًا خاصًا بها، وهو يرمز إلى الانتماء والترابط الاجتماعي والروحي. قد يكون التوتم عبارة عن حيوان معين مثل الدب أو النسر أو الثعلب، أو قد يكون عبارة عن نبات أو شجرة تصبغ عليها صفات القداسة.

تُعزى للتوتم قدرات خاصة وصفات مرتبطة بتلك الجماعة البشرية، ويُعتقد أنه يوفر الحماية والقوة والحظ لأفراد المجموعة، يتم تجسيده في الرموز والأشكال الفنية والتمائم التي يحملها الأفراد أو يستخدمونها في الاحتفالات والطقوس الدينية.

تعد فكرة التوتم أيضًا موضوعًا مثيرًا للاهتمام في دراسة الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، حيث تتناول التحليلات العلمية الطابع الاجتماعي والثقافي والرمزي للتوتم في مجتمعات مختلفة.ف ي هذا النوع من المجتمعات يكون الحيوان أو النبات " التوتم " محرما على أعضاء العشيرة ، ولكن يحق لهم في مناسبات مقدسة معينة أن يتناولونه في وجبة طقسية، لضمان استمرار وحدة العشيرة ورفاهيتها ، لأنهم يعتقدون أن التضحية بالحيوان المقدس "الحيوان الألوهي" تقوي أواصر التواصل بين أفراد الجماعة .

في مثل هذه المجتمعات سيلعب الحيوان /القربان دور الوسيط بين المجال المقدس والمجال الدنيوي ، لهذا ستستميت تجمعات بشرية كثيرة للاحتفاظ بكل أشكال ومعاني التضحية القديمة ، وعلى الرغم من تغير مجال الحياة ، سيظل الأفراد يؤمنون بأهمية القرابين لتحقيق التواصل مع الإله أو الآلهة ،

خاصة وأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة تكون حاضرة في ولائم الطعام والشراب التي كانت تقام بمناسبة ذبح القرابين لتقف شخصيا على الانضباط للإجراءات المقدسة التي يقوم بها المؤمنون تكفيرا عن ذنوبهم ، أو استعطافا لنيل المزيد من المكاسب.

لم تكن للحضارات البشرية نفس التصورات عن تقديم القرابين ، مارست بعض الشعوب التضحية كشكل من أشكال الممارسات السحرية ، لم ينظروا إلى الذبيحة كوسيلة تكفير ، وإنما قدموا الذبيحة للإله من أجل تجديد شبابه مثلا ، في هذه الحالة غالبا ما كان يقدم الإنسان قربانا من أجل تقوية نفوذ الإله الذي تستمد منه الجماعة أو العشيرة قوتها .

كان طقس التضحية بالإنسان متداولا عند بعض الشعوب، التي كانت تعتبر الملك أو رئيس القبيلة مقدسًا، يملك القدرة المقدسة ويمنح القوة لكل القبيلة أو العشيرة ، لكن عندما كان يشيخ أو يضعف رئيس القبيلة أو العشيرة أو الملك ، يتسرب القلق والخوف إلى أفراد المجموعة ،ويشعرون بأن رئيسهم أو ملكهم لم يعد قادرا على منحهم الأمان لمواجهة الأخطار المحدقة بهم ، في هذه الحالة تطفو على السطح بين أفراد العشيرة فكرة التضحية بالملك الضعيف واستبداله بملك قوي ، وهكذا كان يتحول الملك القديم إلى قربان ،يذبح لتجديد دماء الملوكية والألوهية ،ما يؤدي إلى تنامي شعور قوي بالفرح والطمأنينة والأمان بين أفراد المجموعة ، لقد تخلصوا من القلق والإحساس بالضعف حينما ضحوا بالملك الضعيف ، بقتله يشعرون أنهم قتلوا إلها فقد القوة والإرادة و قدرة الفعل ، وخلقوا إلها جديدا بدماء جديدة وبقوة خارقة .

إن المبدأ الذي قامت عليه فكرة التضحية بالملك الضعيف من أجل إله جديد قادر على الفعل، يتماشى مع قولة قديمة تمت صياغتها باللاتينية "Dō ut dēs" بمعنى "أنا أعطي لكي تعطي" تستخدم هذه العبارة للإشارة إلى فلسفة المبادلة والتعاون، حيث يقدم الشخص شيئًا للآخرين بأمل أن يتلقى بدوره شيئًا مماثلاً منهم ،وهو مبدأ يعتبر من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية القائمة على التبادل العادل ، ويعكس فكرة أن العطاء يؤدي في النهاية إلى استقبال المزيد من العطاء ، لكن العطاء في هذه الحالة يتم بنقل القدرة إلى الجسم الآخر لتتدفق وتشمل كل أطراف المجموعة . لم تعرف مجتمعات الصيادين والجامعين Chasseur-cueilleur طقوس التضحية بالدم عكس مجتمعات الزارعين التي ظهرت فيها أولى الممارسات لمثل هذه الطقوس التعبدية .

كان لمجتمع الزارعين الأوائل Les Sédentaires primaires ماضٍ أسطوري جد معقد، تواجدت فيه الآلهة وحضرت بقوة، خاضت معارك دموية وهي تصنع الكون ، وتخرج النظام من الفوضى وتخلق مملكة الموتى . خلفت المعارك بين الآلهة الكثير من الضحايا من الآلهة نفسها ،ومن أجسادها الميتة نما القمح ونمت كل النباتات الزراعية التي سيحتاجها الإنسان حينما يخلق .

كل هذا الماضي الدموي للآلهة ، نقلته الأساطير عبر التاريخ البشري ، وانتقل بين الأجيال على شكل طقوس تعبدية ، تحمل معاني الشكر والتبجيل ، وقد حرصت كل المجتمعات القديمة على الالتزام بكل تفاصيل وقواعد تقديم القرابين للآلهة

،ويمكن أن نلخص طقوس الذبيحة في العناصر الستة الضرورية : المضحي ، المادة المُقدَّمة ، وقت ومكان الطقس ، طريقة الذبح ، المستلم للذبيحة ، والدافع أو النية وراء الطقس، يُسهم كل عنصر من هذه العناصر في فهم فعل الذبح ، على الرغم من أن أهميتها قد تتفاوت تبعًا للسياق الثقافي والتاريخي.

الذابح / المضحي هو الإنسان، قد يكون فردًا أو مجموعة : جماعة ،عائلة، عشيرة، قبيلة، أمة، جمعية سرية، المضحي هو من يقوم بفعل الذبح، قد يكون له دورً أو وضع مميز في المجتمع ، كاهن أو مجموعة من الكهنة أو الأفراد الذين يحظون بتمييز اجتماعي يؤهلهم لأداء هذه المهمة.

تشمل المادة المُقدَّمة الكائنات التي يتم ذبحها ، والتي يمكن أن تشمل الإنسان والحيوانات والنباتات والعناصر الرمزية .

يشير وقت ومكان الطقس إلى السياق الزمني والمكاني الذي يجري فيه الذبح، قد ترتبط الطقوس بتواريخ تقويمية محددة أو دورات زراعية أو أحداث مهمة ، وغالبًا ما يتم أداؤها في أماكن مقدسة محددة أو داخل معابد مخصصة لهذا الغرض ، أما طريقة الذبح فتشمل الطقوس والأفعال والإجراءات المستخدمة أثناء فعل الذبح، يمكن أن تشمل الصلوات والترانيم والإيماءات والطقوس التطهيرية والفعل الجسدي للذبح أو تقديم الكائن المذبوح إلى مستلم الذبيحة وهو الكيان الذي يتم تقديم الذبح له، يمكن أن يكون إلهًا واحدا، أو مجموعة من الآلهة، أو أسلافًا أو أرواحًا أو كائنات خارقة أخرى تبعًا للمعتقدات الدينية أو الروحية للتجمع البشري.

الدافع أو النية وراء الطقس ،يعكس الغرض أو النتيجة المرجوة من الذبيحة، مثل نيل رضا رباني، أو تهدئة الآلهة والأرواح، أو التعبير عن الامتنان، أو البحث عن الحماية، أو الوفاء بالتزامات دينية أو التكفير عن الذنوب وطلب المغفرة والصفح.

في كثير من الأحيان، يجب أن يقوم المضحي بأعمال خاصة قبل وبعد التضحية ، عليه أن يكون عارفا بكل الطقوس المصاحبة لعملية الذبح ، وتتضمن طقوس القربان والصلوات والتلاوات الدينية ، كان من الضروري أن يخضع المضحي لمراسيم دقيقة تشمل الاستحمام الطقسي والصيام والصلاة، بهدف إبعاده عن العالم الدنيوي وتطهيره للتواصل مع العالم المقدس.

في قبائل تربية الماشية ذات نمط الإنتاج الرعوي والنظام الاجتماعي الأبيسي ، كان رئيس العائلة هو الشخص الذي يقوم بتنفيذ التضحيات، لهذا نجد رئيس الأسرة كمضحي شخصية مألوفة في الكتب المقدسة، مثل العهد القديم والعهد الجديد والقرآن ، مثل هذا النموذج النبي إبراهيم ومن بعده ابنه يعقوب ، وفي وقت متأخر فقط ظهرت في هذه التجمعات البشرية الرعوية فئة منفصلة جديدة من الكهنة تزعمت الطقوس التعبدية بما فيها تقديم القرابين .

مع ظهور الأنظمة الملكية أصبح الملك يلعب دورًا هامًا كزعيم ديني ينشط كثيرا في السهر على ممارسة الطقوس بشكل دقيق ،وقد انتشر هذا الجمع بين الدين والسلطة السياسية في التجمعات البشرية التي يرتبط فيها الحكم

بالسلطة الزمنية والدينية معا ، وقد اكتسب الملك المضحي سلطة قوية نتيجة الاعتقاد أن نسبه ينتهي إلى الإله أو إلى نبي من الأنبياء، ومنهما يستمد الملوكية المقدسة، وهذا ما اعتقده المصريون القدامى ، حينما رفعوا الفراعنة إلى مصاف الآلهة ،ولازالت الكثير من التجمعات البشرية تمارس هذا الاعتقاد إلى يومنا هذا .

اعتبر تقديم القرابين في الحضارات القديمة ، من الطقوس التعبدية الأساسية والضرورية ، لأنه شكل جوهر العبادة والحياة معا ، لهذا كان يتم اختيار القرابين بحرص شديد ، كانوا يختارون الأشكال الأكثر تعبيرا عن الحياة نفسها ، والأكثر رمزية . في الواقع، هناك أصناف كثيرة من الكائنات التي كانت موضوع تضحية يمكن أن نقسمها إلى صنفين أساسين : الصنف الدموي ويشمل كل من البشر والحيوان ، والصنف غير الدموي ويشمل الكثير من النباتات والسوائل ، من بين المواد التي تم استخدامها كقرابين خالية من الدم نذكر: الحليب والعسل والزيوت النباتية والحيوانية والبيرة والنبيذ والماء.

كان النبيذ والماء من القرابين الأكثر استعمالا ، اعتبر النبيذ "دم العنب" وبالتالي "دم الأرض"، وهو مشروب روحي ينشط الآلهة والبشر، أما الماء فهو "الماء المقدس للحياة"، المصدر الأصلي للوجود وحامل الحياة للنباتات والحيوانات والبشر والآلهة أيضا. بسبب رمزية الماء ، تم استخدامه مثلما استخدم الدم، استعمل على نطاق واسع في طقوس الطهارة والكفارة لغسل النجاسات واستعادة الحياة الروحية، وقد كان أيضًا إلى جانب النبيذ قربانا هامًا يقدم للأموات كقوة رمزية

لتبعث فيهم الحياة من جديد. لكن وجب التأكيد على أن الأساس في تقديم القرابين هو الاعتراف بالدم كقوة ورمز للحياة المقدسة في كل من الإنسان والحيوان، بواسطة الدم كان يعيش الإله ويستعيد عنفوانه، معه كان يعيش الإنسان والطبيعة كذلك ، بدون الإله يختل النظام وتعود المادة البدائية إلى فوضاها فيعم الدمار ، وعندما يتم إشباع الإله بدم القرابين يستمر النظام والحياة ، وقد تم استغلال الفعالية الكبيرة للدم لتحقيق مجموعة من المصالح البشرية مثل : خصوبة الأرض والتطهير والتكفير .

تنوعت بشكل واسع الحيوانات التي استُخدمت كقرابين في كل الحضارات القديمة ، في اليونان القديمة والهند، على سبيل المثال اختيرت القرابين من الحيوانات المنزلية ،مثل: الماعز والكبش والثور والبقرة والحصان، وجميع الطيورالقابلة للأكل والطرائد والأسماك . كان اليونانيون القدامى يحرصون على اختيار قرابينهم بعناية شديدة لتتناسب مع طبيعة الإله المقصود ، كانوا يضحون بالحيوانات السوداء لآلهة العالم السفلي المظلم، وبالخيل السريعة لإله الشمس هيليوس؛ ولديمتري الأم ولإلهة الأرض كانوا يُقدمون أنثى خنزير حامل.

انتشرت طقوس التضحية بالبشر بين الكثير من الشعوب والحضارات الغابرة بأهداف متنوعة، تراوحت بين التواصل مع الإله ومشاركته حياته ، والتكفير وطلب الغيث والخصوبة، في المكسيك مثلا كان شعب الأزتيك يقدم قرابين بشرية لإله الشمس ، حيث اعتقدوا أنه يحتاج إلى غذاء بشري

،وقد وصل عدد القرابين المضحى بها إلى عشرين ألف ضحية سنويًا. الأزتيك هم مجموعة من الشعوب الأمريكية الأصلية ، عاشوا في منطقة وسط المكسيك قبل وصول الاستعمار الأوروبي الذي أباد حضارتهم .

تعد حضارة الأزتيك واحدة من أعظم الحضارات القديمة في أمريكا الوسطى، ازدهرت في الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي. كانت حضارتهم تتمتع بتنظيم اجتماعي وسياسي متقدم، و اشتهرت بتقنياتها الزراعية المتقدمة ،ونظامها المعقد للتجارة والاقتصاد، كما كان لهم ثقافة دينية غنية ومعقدة، مارسوا العديد من الطقوس الغريبة والوحشية ، وكان للآلهة دورً مهمً في حياتهم اليومية.

مارس الأزتيك طقوس تقديم قرابين بشرية انسجاما مع معتقداتهم ، وتقاليدهم التعبدية ومصالحهم الزراعية والتجارية والاجتماعية ،كانوا يختارون قرابينهم البشرية من أسرى الحروب التي كانوا يخوضونها ضد الشعوب المجاورة لهم ، كانوا يذبحون القرابين في مذابح خاصة بالمعابد وفق طقوس دقيقة، يعتقد الأزتيك أن القرابين البشرية تجدد وتمتن الصلة بالآلهة وتحافظ على التوازن الكوني.

تطورت في بعض التجمعات التضحيات البشرية بدون سفك الدماء ، واتخذت أشكالًا مختلفة ، على سبيل المثال كانت تتضمن طقوس السيلت (Celts) التضحية بامرأة عن طريق الغمر، وحضارة السيلت قديمة تعود إلى العصور الحديدية في أوروبا القديمة، كونتها مجموعة من القبائل والشعوب التي عاشت في مناطق متنوعة بشمال ووسط أوروبا، بما في ذلك

اليونان وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وشمال إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية والبلقان . أما لدى شعب المايا بالمكسيك، فقد اختاروا قرابينهم من العذارى الشابات ،ضحوا بهن بإغراقهن في الآبار المقدسة، وفي البيرو كان يتم خنق النساء للتقرب من الآلهة، في الصين القديمة كان من المعتاد دفن مرافقي الملك معه، واستمرت هذه الممارسة بشكل متقطع حتى القرن السابع عشر.

إن عملية تقديم القرابين للآلهة، باعتبارها جزءًا من العبادة تعتبر من الطقوس التي تتجذر في تاريخ البشرية ، تمتد ممارستها من بداية ظهور الأساطير والأديان إلى يومنا هذا.

تمثل الأسطورة مادة حيوية جمعت فيها العقائد والشعائر ، وأحيطت بهالة من القدسية، ومعلوم أن كل مقدس يتميز بمقاومته للتغيير، طبعا سقطت بعض القناعات القديمة التي لم تصمد أمام التحولات الاجتماعية والعلمية، واستمرت قناعات أخرى ، كما استمرت بعض العباداتُ والطقوس تعاند وتقاوم نواميس التطور والتغيير، تلجأ إليها بعض الجماعات البشرية والشعوب كلما احتاجوا إلى تدخل القوى الغيبية ، تحت ضغط شروط وظروف يرون أنها تتجاوز قدراتهم ، يمكن أن يطلبوا مثلا تدخل الإله لمواجهة تغيرات المناخ وانحباس المطر وارتفاع مخاطر الفيضانات ،أو أمام رهبتيْ الخسوف والكسوف لدى بعض الشعوب.

لا زالت الكثير من الشعوب إلى يومنا هذا، تسعى إلى استمالة القوى الغيبية بما في ذلك أرواح الموتى ، تتقرب إليها بالهدايا والقرابين ، ويمكن أن يكون هذا السلوك مجرد تقليد موروث ، يعبر عن بقايا ثقافة وثنية قديمة تأبى الاندثار ،

لكن علينا أن نلتمس العذر للإنسان القديم ، وهو يبحث عن أجمل قربان يستميل به آلهته ، سواء استمدها من الطبيعة أم من الخيال أم من التلاقح الثقافي بين الحضارات القديمة ، مثل ذلك التلاقح الثري الذي حدث في المنطقة الممتدة من بلاد الرافدين إلى الهند .

منذ فجر التاريخ مارس الإنسان طقس تقديم الذبائح البشرية والحيوانية للآلهة ، بهدف إرضائها وتجنب سخطها وغضبها ، وفي وقت لاحق أصبح هذا الطقس عبادة قائمة بذاتها ، ووسيلة للتكفير عن الذنوب وطلب الغفران والعفو، لكن هذا الطقس عرف ثورة أولى مع تطور وتعقد التجمعات البشرية الزراعية ،ثم عرف ثورة ثانية كبرى بظهور الديانات التوحيدية الإبراهيمية ، حيث سيتم التخلي نهائيا عن الذبيحة البشرية واستبدالها بالذبيحة الحيوانية ، وكان للفكر اللاهوتى المسيحى تصور جديد لطقس الذبيحة، أصبح لرمزية الذبح معنى مأساوي حينما قدم المسيح جسده فداء عن كل الذبائح البشرية لمحو كل خطايا البشر ، وهذا ما رفع هذا النبي إلى مصاف الأبطال المأساويين ...

على الرغم من وجود هذا الاستثناء المسيحي تبقى فلسفة طقس الذبيحة ثابتة كما هي، بل أصبحت أكثر توثيقا وحضوراً، لهذا نؤكد على إن تتبع المسار التاريخي لطقس الذبح يفرض علينا أن نغوص في بداياته ،أي علينا أن نعود إلى ما قبل نشوء الصيغ المعروفة للأديان ،مع محاولة قراءة التضاريس النفسية والذهنية لعقلية بدائية خلقت الأسطورة وتعايشت معها لتتسلل إلى ميثولوجيات لاحقة.

لقد خلق الإنسان القديم عدة آلهة ، نتيجة تعدد تمظهرات قوى الطبيعة المحيطة به ، والمؤثرة بشكل مباشر في نمط إنتاجه ، خلقت التجمعات البشرية الزراعية إله للخصب وآخر للمطر وآخر للبحر ، وآخر للنهر وإله للسماء وإله للنجوم والرعد والبرق ... تعددت الآلهة وفقا للعلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة .من أجل تطوير نمط إنتاجه وتحقيق الوفرة الغذائية ، كان على الإنسان أن يطور طرق حرثه وزرعه وريه وبذوره ، وفي نفس الوقت فكر بجدية غير مسبوقة في ضرورة التقرب من كل الآلهة التي خلقها ، فحين يشتد الجفاف ويرفع المطر ويقل الزرع ، كان يتوجه إلى إله المطر وإله الخصب وإله الري وإله الزرع وإله النهر ، كان الإنسان يتوجه إلى إله واحد أو إلى مجموعة من الآلهة يطلب العون والمغفرة وينتظر تدخلها المباشر ، لذا كان يقدم لها القرابين . كان طقس الذبح للتقرب من الآلهة ممارسا بشكل واسع فى المجتمعات الزراعية ، في مصر القديمة مثلا كانت تقدم بعض القرابين الدينية لنهر النيل ، ولكن لا توجد أدلة تشير إلى أن القرابين كانت بشرية ، كان النيل يعتبر شريان الحياة في مصر ومصدر الرخاء والخصوبة، وقد تم تقديم العديد من القرابين لإله النيل " هابي" أو " حابي " أو "حابا" (Hapi). يُعتبر حابي إلهًا مهمًا في العديد من العقائد المصرية القديمة، حيث كان يُعتقد أنه يتحكم في نهر النيل ،يجلب الخصوبة والغنى للأراضي المصرية. يصور حابي عادة على شكل رجل، ويُعتقد أن ينابيع النيل الرئيسية الأربعة، النيل الأبيض والأزرق والأصفر والنيل الغربي تنبع من أصابع قدميه ، ويرمز له كذلك بشكل البلحة أو الثدي الأنثوي المنتفخ الذي

يعتبر رمز العطاء والخصوبة . كان حابي إلهًا محبوبًا ومهمًا في الحياة اليومية للمصريين القدماء، لأنه يسهر على استمرار تدفق النيلٍ،كانوا يتقربون إليه بالقرابين ، لكنها كانت في معظم الأحيان حيوانات مثل الأبقار أو الأغنام أو الطيور.
بشكل عام، لم يكن استخدام القرابين البشرية جزءًا من الطقوس الدينية في مصر القديمة ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن القرابين الحيوانية كافية لتلبية احتياجات الآلهة لكسب حبهم ودعمهم.
حينما تصاب بعض التجمعات البشرية بالأوبئة والأمراض المستعصية على الفهم والتفسير والعلاج ، تلجأ إلى معتقداتها تبحث فيها عن الخلاص ولكن حينما لا تكون الأدعية والصلوات كافية لرفع غضب الإلهة ، تلجأ تلك التجمعات المصابة إلى تقديم قرابين بشرية ، والتضحية بأحد أبنائها تكفيراً عن ذنب يعتقد أنه سبب العقاب ، هذا الفعل القرباني ظهر منذ القدم في مجتمعات مختلفة على امتداد التاريخ البشري .
في الديانة السومرية القديمة التي كانت تُمارَس في منطقة ما يعرف اليوم بالعراق الجنوبي، تم تقديم القرابين البشرية للآلهة، وعلى الرغم من أن المعلومات حول هذه الممارسة قد تكون ضئيلة وغير مؤكدة بشكل كامل، إلا أن بعض النصوص السومرية أشارت إلى ممارسة هذا الطقس في بعض المواقف الدينية الكبرى أو في حالات الطوارئ ، والأحداث الهامة. من النصوص الشهيرة التي أشارت إلى هذه الممارسة نذكر "نص الملك المؤقت" وهو نص أدبي سومري قديم، يتحدث عن طقس تقديم القرابين البشرية، يُعرف النص

أيضًا باسم "نص أوما" أو "نص الحقبة الأولى" تم اكتشافه في الأربعينيات من القرن العشرين في العراق، وهو يعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. يصف النص ملكًا مؤقتا ، اختارته الآلهة وعينته ملكا بصفة مؤقتة ، سيجبر على التضحية بنفسه في حالة حدوث أية أزمة تهدد البلاد والعباد . يتم تنصيب الملك المؤقت في منصبه ، ليعيش حياة ملكية لمدة محدودة قبل أن يتم ذبحه تقربا من الآلهة من أجل تجاوز الأزمة التي تمر بها البلاد ،واستعادة النظام والاستقرار من جديد ، ومع ذلك، يجب أن نشير إلى وجود القليل جدًا من الأدلة التي تدعم فعليًا حدوث هذه الممارسة بانتظام في الحضارة السومرية.

هناك بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى ممارسة طقس تقديم القرابين البشرية في الديانة البابلية القديمة، وفقًا للروايات الموجودة ارتبط هذا الطقس بظروف استثنائية تتطلب تقديم قرابين بشرية لإرضاء الآلهة وتحقيق الفضل الإلهي. من المعروف أن المملكة البابلية القديمة كانت تمارس طقوسًا دينية معقدة ومتنوعة، وكانت القرابين تلعب دورًا مهمًا ، تذكر بعض النصوص القديمة، مثل "نص إريدو"، تفاصيل عن تقديم القرابين البشرية للآلهة في سياق الأعياد الدينية الكبرى، ويعتبر هذا النص أحد أهم النصوص التي تروي قصة تقديم قربان بشري . يُعرف النص ايضا باسم "ملحمة إريدو" أو "نص الفيضان البابلي" ويصف قصة البطل البابلي" إريدو" الذي تم اختياره ليكون القربان البشري للآلهة. سيترك " إريدو" البشر ويتجه إلى عالم الآلهة بسبب

الفيضان الذي يهدد العباد، وتصف القصة الاستعدادات والتحضيرات التي يقوم بها هذا البطل قبل التضحية بنفسه.
ومن الحضارات المتأخرة التي استمر فيها تقديم القرابين البشرية للآلهة إلى زمن متأخر، نذكر حضارتي المايا والأزتيك ، في حضارة المايا، وجدت بعض الأدلة التاريخية والأثرية التي تشير إلى ممارسة طقس تقديم قرابين بشرية في بعض الحالات، على سبيل المثال تم العثور على بعض القبور في المواقع الأثرية للمايا تحتوي على بقايا بشرية عليها علامات تدل على أنها كانت موضوع تضحية للآلهة ، ومع ذلك، لا يزال هناك الكثير من الغموض حول طبيعة ونطاق هذه الممارسات وما إذا كانت شائعة أو محدودة في بعض المناسبات الاستثنائية.
بالنسبة للأزتيك، هناك أدلة أكثر وضوحًا على تقديم القرابين البشرية للآلهة، وفقًا للروايات التاريخية، كان يتم اختيار الأسرى من الحروب أو الأسرى السجناء ليتم التضحية بهم كقرابين للآلهة. يُعتقد أن هذه الطقوس كانت تقام في مناسبات معينة، مثل الاحتفالات الدينية الكبرى ، كان كهنة المعبد يجتمعون عند سفح الهرم ينتظرون الخسوف القمري ليقدموا رؤوسا بشرية لإله القمر تكفيراً منهم عن ذنوب يفترض أنهم ارتكبوها ويعانون بسببها..
ساد طقس تقديم الذبائح البشرية للآلهة في ثقافات مختلفة وحضارات متنوعة شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، واستمر الطقس حاضرا في الوعي البشري إلى أن استقر في الكتب المقدسة الإبراهيمية ، التي أجمعت على سرد نفس قصة

الفداء مع اختلاف في تحديد اسم القربان البشري بين اليهودية والمسيحية والإسلام .
إن قصة الفداء الإبراهيمي تكررت في الكتب السماوية المقدسة ، تحكي عن امتحان مر به إبراهيم حينما أمره الله بان يضحي بابنه ( إسحاق أو اسماعيل) ليختبر قوة إيمانه ، وبينما كان إبراهيم يستعد لذبح ابنه ( اسحاق أو اسماعيل) ، أُرسل إليه الله ملكًا يطلب منه بأن يستبدل ابنه /القربان بكبش عرف باسم الفدي أو الذبح العظيم .
إن قصة الفداء الإبراهيمي في الديانات التوحيدية ،لا تفسر بانتقال المضامين المثيولوجية بين الشعوب فحسب ، بل تضعنا أمام نسخ واحدة لطقس تقديم القرابين البشرية، تعتريها نفس الانفعالات والرؤى ويوجهها نفس التفكير... سنحاول أن نقترب من طقس الذبح بالنظر في بعض الأديان الإبراهيمية بخلفياتها الميثولوجية.
تعتبر الميثولوجيا التوراتية بداية لما يُطلق عليه الأديان التوحيدية أوالإبراهيمية ، وهي تنتسب لنفس الأب البطرياركى الأول المعروف باسم ابراهيم. لم تأت الميثولوجيا التوراتية الإبراهيمية اليهودية بشيء جديد في ما يتعلق بالطقوس القربانية ، ولكن يُحسب لها التحول الذي حدث في ممارسة هذا الطقس ، ذلك أنها وضعت حدا لطقس تقديم الذبائح البشرية حين انتهى نهاية سعيدة بعد فداء " اسحاق أو إسماعيل "، لكن المضمون الجوهري للذبيحة أوالقربان كمعتقد ومعنى وهدف ظل مخلصا لما أسسته كافة العقائد الوثنية السابقة .

إن أخبار تقديم الحيوانات والنباتات كقرابين ، متكررة في مقاطع مختلفة من الكتاب المقدس ، يخبرنا العهد القديم/ سفر التكوين أن قاييل وهابيل قدما قربانيهما إلى الله ،لكنه رفض قربان قابيل وقبل قربان هابيل . قابيل قدم لله ثمار عمله الزراعي ، أي قدم له ما أنتج من الأرض ، بينما قدم هابيل لله ذبيحة من غنمه ، جاء في سفر التكوين "وقدم هابيل من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن الى قاييل وقربانه لم ينظر" (سفرالتكوين 4:4-5). وبعد انتهاء الطوفان قام نوح بتقديم ذبائح لله من الحيوانات التي كانت على الفلك.. جاء في سفر التكوين ( وسر الله من تضحية نوح , وبنى نوح مذبحا للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت) سفر التكوين- 8:20-21-. كما أمر الله ابراهيم بالتضحية بأبنه اسحق حسب سفر التكوين واسماعيل حسب بعض الروايات الإسلامية .. رأى إبراهيم في المنام أنه يؤمر بذبح ابنه ، أخبر زوجته بالرؤية كما أخبر ابنه ، لم يمانعا فسار بابنه لينفذ عليه أمر الرب ، جاء في سفر التكوين ( ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه .فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم. فقال: هأنذا . فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا

كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه ) تكوين 10:22-13.وهكذا سينقذ الله ابن ابراهيم ويفديه بكبش ..

لقد عبر طقس تقديم القربان لله في المعتقد التعبدي التوراتي عن فكرة التطهير بالدم، وهي فكرة محورية عند اليهود ، كما في الأساطير السومرية والبابلية والأشورية والفرعونية ، نجد في سفر العبرانيين، الإصحاح 9 ما يلي : ( وكل شيء يتطهر- حسب الناموس بالدم، وبدون سفك دم، لا تحصل مغفرة). هذه الآية ذات أهمية كبيرة لأنها تقدم لنا فهم وفلسفة الكتاب المقدس في التضحية بالكائنات الدموية ، سواء أكان دم حيوان يحل محل دم الإنسان كما جاء في قصة إبراهيم أو كان دم إنسان خالص ، كما يروى في الكثير من القصص العبرانية ، نذكر منها قصة إسحاق مع ابنيه عيسو ويعقوب ، وكيف فكر عيسو في تكرار تجربة قابيل وهابيل، ليستحوذ على إرث إسحاق ( النبوة ) ، لولا فرار يعقوب إلى مدينة أخرى .

وفي كتاب القضاة الفصل 11( وهو أحد كتب العهد القديم ، وجزء من سفر التاريخ، تناول فترة زمنية تلي وفاة يشوع بن نون ، تبدأ بوفاة يوسف وإخوته في مصر إلى قيام مملكة إسرائيل عهد الملك شاول ) نقرأ قصة يفتاح الجلعادي وابنته الوحيدة يفتاح بن جابر الجلعادي، قائد العسكري شهير قدم ابنته قربانًا لله.

كان يفتاح من أبطال بني إسرائيل وبينما كان يستعد لخوض معركة هامة ضد بني عمون، قدم نذرًا لله بأن يذبح له قربانا

إذا ساعده على الانتصار ضد الأعداء ، وليكتمل النذر حدد بعض الالتزامات التي سيتقيد بها ، ذلك أنه نذر بأن يضحي بأول من سيصادفه عند عودته إلى بيته منتصرا. انتهت المعركة بانتصار القائد يفتاح ،عاد إلى بيته وكانت ابنته الوحيدة أول من صادف وهو على مشارف بيته ، رغم حبه العميق لابنته قام بتنفيذ النذر الذي قطعه على نفسه ، ذبح ابنته الوحيدة على مذبحة المعبد وقدمها قربانا لله . وفقًا للتقاليد الدينية وتوجيهات الكتاب المقدس، إن تنفيذ نذر مثل هذا أصبح ملزمًا ولا يمكن التراجع عنه.

إن قصص الفداء البشري المتكررة في الكتاب المقدس اليهودي ، هي من صميم تأثر هذه الديانة في بدايتها بالميثولوجيا والطقوس البدائية ، كانت الديانة اليهودية مترددة في قضية تقديم القرابين المقدمة لله ، راينا في بعض القصص التي عرضناها أن إبراهيم كان مستعدا للتضحية بابنه ،لو لم يفتده الله بذبح عظيم ، كما قربتنا القصص الأخرى من حضور الدم البشري في الطقوس الدينية اليهودية ، لكن مع تطور المجتمع ووعيه بأهمية العنصر البشرى، سيتم تجاوز هذا السلوك المأساوية باستبدال القربان البشري بقربان حيواني .

جاءت قصة إبراهيم في سياق عادات وأنساق المجتمعات القديمة ، ولكنها في نفس الوقت مثلت فيصلا بين عهدين ومعتقدين ،وجب أن نشير إلى أن هذا التحول بدأ في الشريعة السومرية ، حينما بدأ كهنة المعابد يتخلون عن القرابين البشرية لتحل محلها القرابين الحيوانية ، وذلك قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، لكن وفي خضم التحول الثوري الذي حدث

على طقوس تقديم القرابين ، وجب أن نشير أولا إلى الاستثناء المسيحي ، حين قدم المسيح جسده قربانا لله للتكفير عن خطايا البشر، وهكذا سيتوقف طقس تقديم القرابين عند المسيحيين إلا ما ظهر في بعض الحالات الشاذة.
اليهودية والإسلام حافظا على طقس تقديم القرابين إلى يومنا هذا ، كما دققا في تحديد شروط ومناسبات ومواصفات الأضحية ، وفي هذا المجال يمكن أن نجد الكثير من نقط الالتقاء بين الديانتين ،حيث تتقارب وتتقاطع الرؤى بينهما في الكثير من النقط ،خاصة في ما يتعلق بمواصفات القربان ونذكر منها : أن يكون الحيوان المضحَّى به سليماً من العيوب الظاهرة والباطنة ، كالتي تؤدِّي إلى نقصٍ في قيمة لحم الذبيحة أو تضرُّ بآكلها، فلا يجوز أن يضحى بالدابَّة البيِّن مرضها ولا العوراء ولا العرجاء ولا العجفاء ولا الجرباء، ويُستحبُّ في الأضحية أسمنها وأجملها منظرا .
إن طقس التقرب إلى الله بالدم متواتر في مُجتمعات عديدة، خاصة تلك التي يرتفع فيها الحس الديني ليتجاوز حدود القناعات الفردية ،ويصبح ممارسة جماعية تغرق العقل الجمعي في متاهات الأوامر والنواهي و الطقوس الإجبارية .
كان الكبش حاضراً فى جل الثقافات ،إنه أكثر الحيوانات الداجنة توفرا وخضوعا واستسلاما ، بهذه المواصفات سيتربع الكبش على عرش القرابين والاحتفالات والمناسبات ، لقد لازم إنسان المجتمعات الزراعية والرعوية ، ليصبح أهم الحيوانات تلبية للحاجات الغذائية والتعبدية ، ويحظي في الميثولوجيا البشرية بحضور قوي ومهم إلى درجة سيستحوذ على مذابح المعابد ، ليقدم إلى الآلهة قربانا لدى السومريين

والبابليين والفرعونيين والزراديشتيين، وبعد تطور المجتمعات ونمط الإنتاج ستستعيره الديانات المتأخرة ليلعب نفس الدور، ويكون له نفس الحضور، وهذا يعني أننا أمام ميراث ميثولوجى إنسانى ، تبادلت فيه الحضارات الأثر والتأثير طيلة آلاف القرون ، ولم تتوقف عن الاستعارة من بعضها البعض نفس المشاهد والطقوس التعبدية.

كان للكبش دور مهم في الثقافة والديانة السومرية ، تم ذكره في العديد من النصوص ، ونقشت صوره على الألواح والحجارة ، كان يرمز إلى الخصوبة والثروة، وارتبط بعبادة الآلهة الساهرة على الزراعة والحصاد. وجدت بعض الألواح نقشت عليها صور الآلهة بجانب الأبقار والأكباش ، كما وجدت ألواح سومرية أخرى بها نصوص تتحدث عن طقوس ذبح الأكباش وتقديمها للآلهة لإشباعها وتحقيق التواصل معها وتعزيز العلاقة بين البشر والعالم الروحي.

في الديانة البابلية القديمة، كان الكبش يحتل مكانة مهمة ويعتبر قربانًا مثاليا ، تحبه آلهة الخصوبة والزراعة منها "دموزي" و"ديركيت" التي كان يقدم لها الأكباش كقرابين للحصول على وفرة المحاصيل الزراعية . كما ارتبطت إلهة الحب والجمال "عشتار أو إشتار" بالكبش، رمز الرجولة والقوة والجمال، وكانت عشتار تستقبل الأكباش كقرابين في طقوس احتفالية

في الثقافة الفرعونية القديمة كان للكبش دور رمزي مهم ، اعتبر رمزًا للقوة والرخاء والتواصل مع الآلهة. توجد في الديانة الفرعونية طقوس دينية تتضمن ذبح الأكباش وتقديمها للآلهة ، ويعتقد أن هذه الطقوس كانت تهدف إلى إشباع الآلهة

وكسب رضاها وبركتها، وهو يُشير في النصوص والتماثيل إلى القوة الفيسيولوجية والعسكرية للفراعنة. ويُعتقد أن الفراعنة أنفسهم يرتبطون بشكل خاص بالكبش ويضعون أغطية على رؤوسهم بشكل يشبه القرون للتعبير عن السلطة والسيادة ،التي تستمد قوتها وشرعيتها مباشرة من الآلهة .

في الديانة الإغريقية القديمة، يحتل الكبش مكانة مهمة، كان يُعبد كرمز للعديد من الآلهة وكان يستخدم في الطقوس الدينية والقربانية. ارتبط زيوس ملك الآلهة أحد الآلهة الأكثر ارتباطًا وثيقا بالكبش في الديانة الإغريقية باعتباره رمزا للسلطة والقوة ، وكان يقدم كقربان لزيوس في العديد من المناسبات الدينية والاحتفالات الهامة، كما ارتبط بالإله بان (Pan) ، الإله الراعي وحامي الرعاة عند الإغريق، علاوة على هذا وجدت آلهة أخرى ارتبطت بالكبش ، أهمها إلهة الحب والجمال أفروديت، وقد تم ربط الكبش بأفروديت لأنه يرمز إلى الرغبة والشهوة الجنسية.

في الزرادشتية، وهي الديانة القديمة التي تأسست في إيران القديمة، يحتل الكبش مكانة مرموقة ، ويؤدي دورا رمزيا مهمًا ، يشير في الزرادشتية إلى الخير والنقاء والقوة والخصوبة، وعرف بعدة أسماء في هذه الديانة ، ويبقى "بابر" أهمها وأكثرها تداولا ، يُعتقد أن بابر يملك قوة الحماية والرعاية ،كما عرف الكبش باسم "رايي"، وهو الشجاع والقوي والنبيل ،ويرمز إلى الصلابة والشجاعة أثناء محاربة الشر والظلم.

في الثقافة الأمازيغية القديمة، كان للكبش دور مهم ومكانة رمزية ، يُعتبر رمزًا للقوة والشجاعة والثروة. في الاحتفالات

الطقوسية والمناسبات الخاصة ، كان يضحى بالكبش بهدف اكتساب الشجاعة وإشباع الآلهة والتواصل مع العالم الروحاني. يرتبط الكبش في الثقافة الأمازيغية بالقوة والشجاعة، ويرمز إلى الذكورة والشجاعة والصلابة.. كما يُعتبر كذلك رمزًا للثروة والرخاء ، وغالبا ما يتم ربط الكبش بالازدهار والاستقرار وقوة الاقتصاد.

في الديانات التوحيدية يحضر الكبش بشكل مكثف ودائم بدلالات رمزية ، لكن بالرجوع إلى التراث الميثولوجي البشري نقتنع بامتداد فكرة التضحية بكبش لأكثر من أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، وهذا ما يؤدي بنا إلى الاعتراف بمكانته كقربان في كل الأديان البشرية قبل أن تصلنا القصة الإبراهيمية بآلاف القرون ، لهذا فليس غريبا أن يكون الكبش فداء عن ذبح إسماعيل أو إسحاق ، و أن يكون المسيح هو القربان الذي جاء ليضحي بنفسه ، تكفيرا عن آثام كل البشر، أما في الإسلام، فنجد في ثنايا التراث رؤية تجعل من الكبش إضافة إلى كونه قربانا يتقرب به إلى الله، رمزا للموت وبعث جديد في الحياة الأخرى، يتضح ذلك في حديث ينسب إلى النبي، ورد في صحيح مسلم ، وفيه يخاطب أهل الجنة وأهل النار ، جاء في الحديث : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ،و أهل النار النار ، يُجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة و النار فيقال، يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت. فيُقالُ : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون و ينظرون ويقولون: نعم هذا الموت ، فيُؤمر به فيُذبح و يُقالُ : يا أهل الجنة خلود بلا موت ،و يا أهل النار خلود بلا موت "

إن طقس تقديم القرابين للإله أو للآلهة في الثقافة البشرية ، يعبر عن وعي الإنسان وإدراكه لمحيطه وبيئته ، كان الإنسان منبهرا بالكون والطبيعة والموت ، كان يشعر بالخوف أمام كل الظواهر التي يعجز عن تفسيرها ، فراح ينسج من كل علله الكثيرة تصوراته الباحثة عن حل لمعضلة الحياة والوجود والموت إلى أن تحولت كل تلك التصورات والانطباعات إلى أساطير مقدسة صنعت الأديان التي أتت معها كل مشاكل البشرية

## 10- الخنزير حضور ميثولوجي مأساوي

تعتبر الصورة السمعية للفظة " خنزير " من أكثر الصور تاثرا بمرجعياتنا الثقافية ،إلى درجة يمكن أن نقول : الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي تعرض لأشرس حملات التهميش والتحقير والرفض والتحريم ، رغم أن النبي نوج سمح له بأن يركب سفينته لينجو من الطوفان ، لماذا تعرض الخنزير لهذه الحملة الشرسة على امتداد التاريخ البشري ؟ لماذا انتهى نهاية مأساوية في الميثوثولوجيا ؟

سنقوم بسفر في الميثولوجيا والأديان ، نتتبع التاريخ المأساوي لهذا الحيوان الذي رفضته الآلهة كما رفضه الإنسان .

ان تحريم بعض الأطعمة هو مفصل أساسي في دراسة الأديان ومقارنتها، للتمييز بين أتباع دين معين وأتباع دين آخر، خاصة وأن تعاليم الأديان التي تخص التجمعات البشرية جد محصنة، يصعب اختراقها من طرف قوى خارجية، لهذا السبب نجد جميع الأديان تتضمن تحريم بعض الأطعمة التي لها قيمة اجتماعية لدى مجموعات منافسة أخرى.

في الميثولوجيا السومرية كان الكهنة أول من حرموا تقديم لحم الخنزير كقربان إلى الآلهة لسببين ،الأول لأن لحمه كان متوفرا بكثرة في تلك الفترة ، أي قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، أما السبب الثاني فيرجع إلى رخص أسعار الخنزير في جنوب العراق في ذلك العهد.

كان طقس تقديم القرابين حاضرا بقوة في الديانة السومرية وكان الكهنة هم الذين يشرفون على هذا الطقس ،بما أنهم

كانوا يهيمنون على تدبير العبادات ، كانوا يضعون الشرائع ويسنون القوانين، كما كانوا يستفيدون من هذه الطقوس ومن القرابين التي تقدم للآلهة..

كان الخنزير في متناول الطبقات الشعبية نتيجة رخص ثمنه ، لم يكن يمثل أية قيمة مضافة للكهنة ، فبسبب ضعف فائدته المالية لم يرخص له بأن يصبح قربانا ينافس القرابين النادرة والمرتفعة الثمن ، ونتيجة ذلك تم حرمان الطبقات البسيطة من توظيفه في نذورهم للتقرب من الآلهة ،حتى لا يرهقوها بطلبات لا تكاد تنتهي ، من هنا يمكن القول: إن تحريم تقديم الخنزير قربانا للآلهة ،أملته خلفيات اقتصادية وتجارية محضة ، لأن الكهنة رأوا أن رفاهيتهم ستتضرر بالقرابين الرخيصة ، وتنحدر مكانتهم ويصبحون مثلهم مثل عامة الشعب في المأكل والملبس. من هنا نخلص إلى أن تحريم الخنزير في الديانة السومرية القديمة فرضه الكهنة حفاظا على رفاهيتهم وتميزهم عن الطبقة الشعبية ، لكن منع تقديم الخنزير قربانا للآلهة لم يؤد إلى تحريم تناول لحمه ، كان الخنزير هو لحم الفقراء نظرا لثمنه البخس ،لم ترفض الآلهة الخنزير ، لأنها مجرد صناعة بشرية لا وجود لها ، الكهنة هم من حرموا تقديم الخنزير قربانا ،لأنهم يعرفون أن ذلك اللحم الرخيص سيصل إلى موائدهم وهذا ما رفضوه بقوة.

لم يعلن الكهنة البراغماتيون عن نيتهم ، ظلت أهدافهم ونواياهم متوارية عن الشعب المهووس بالدين، لقد أقنعوا الشعب عن طريق الترهيب والتخويف أن الآلهة تحرم على الشعب أن يقدم الخنازير قربانا لها ، وهكذا ستلوذ الطبقات

الشعبية بالصبر والدعاء ، في انتظار أن تغير الآلهة موقفها وتقبل منهم دم خنزير .
جاء في الميثولوجيا البابلية تحريم لحم الخنزير أيضا ، لكن التحريم لم يتجاوز يومين فقط في السنة ، أثناء الاحتفالات برأس السنة البابلية، حيث كان البابليون يقومون خلالها بذبح قطعان كبيرة من الخنازير وتقديمها كقرابين في طقوس احتفالية .
ساد الاعتقاد لدى البابليين بأن الخنزير عدو للآلهة تسكنه الأرواح الشريرة ، جاء في القصص الميثولوجية والعقائد السائدة وقتذاك، أن الخنزير حيوان خائن لإرتباطه بعلاقة مشؤومة بالعالم السفلي وهو الحيوان الذي ارتبط اسمه بمقتل الإله تموز.
تموز (Tammuz) هو إله اشتركت فيه الأساطير البابلية والسومرية والأكادية، يعود تاريخ عبادته إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وهو إله الحب والخصوبة والزراعة ، كانت له صلة بدورة الطبيعة والمواسم الزراعية، كما كان يرتبط بالقمح ونمو النباتات، كان يرمز إلى البعث والحياة الجديدة.
قصة موت تموز متداولة في الأساطير البابلية، ووفقًا للأسطورة قتل الخنزير تموز وتم دفنه في أعماق الأرض، وقد حزنت عليه شريكته عشتار أو إيشتار (Ishtar) إلهة الحب والجمال، فتوجهت إلى العالم السفلي لاستعادته ، بعد مفاوضات طويلة تم السماح له بالعودة إلى الحياة لفترة محدودة كل عام، كان يعيش في العالم السفلي خلال ستة

اشهر، ويخرج إلى عالم الأرض مع بداية فصل الربيع ليقضي مع محبوبته عشتار ستة أشهر.
في الميثولوجيا الكنعانية ترتبط قصة "تحريم" لحم الخنزير بأسطورة الإله السوري أدونيس (Adonis) إله الجمال والخصوبة ،وقد ارتبط أدونيس لدى الكنعانيين بعشتار والخنزير البري.
تحكي الأسطورة عن حب أدونيس لعشتار، إلهة الحب والجمال والخصوبة، وقد تم تصوير علاقتهما على أنها علاقة عاطفية قوية انتهت نهاية مأساوية . كان أدونيس في رحلة صيد ، فجأة خرج له خنزير بري، ضربه ضربات قاتلة أدت إلى إصابته بجروح مميتة ،سارعت نحوه عشتار ،وضعته بين أحضانها لتعيش لحظاته الأخيرة ،وهو قيد الاحتضار سقطت قطرة من دمه على الأرض خرجت منها زهرة جميلة تسمى زهرة الأنيمون أو شقائق النعمان (Anemone).
أخذت الأسطورة الكنعانية من الأسطورة البابلية نهايتها ال ، إلى درجة يمكن أن نلاحظ تطابقا تاما بالمسار المأساوي للإلهين ، أدونيس كتموز سيعيش ستة أشهر في العالم السفلي ،ثم يصعد إلى الأرض مع بداية فصل الربيع ليعيش ستة أشهر. يعد ادونيس شخصية مهمة في الأساطير والشعائر الدينية للكنعانيين والفينيقيين واليونانيين القدماء، كان يعبد في مهرجانات واحتفالات تكريمًا للطبيعة والخصوبة والنمو الزراعي. تتداخل شخصيات ورموز أسطورة أدونيس ، وترتبط بعلاقات تعبّر عن دورة الحياة والموت والخصوبة ، كما تعكس المفاهيم الروحية والثقافية لتلك الأساطير القديمة.

في الميثولوجيا المصرية القديمة نصادف اسطورة طريفة، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تحكي عن شعوب جديدة استقرت في مناطق الدلتا شمال مصر ، وحسب الآثار الأركيولوجية فقد حدث تقسيم جغرافي بين الشمال والجنوب المصري ، في الشمال كانت منطقة مصر العليا ، وفي الجنوب منطقة مصر السفلى . كان سكان مصر العليا يعبدون إله اسمه حورس Horus أما سكان الجنوب فقد كانوا يعبدون إله اسمه سيت/سيثSeth ،حسب الأسطورة يعتبر حورس ، الأخ الخامس لكل من الآلهة اوزوريس، ايزيس، سيت، نفتيس، وهو من كان يحكم السماء ، باقي إخوته تقاسموا حكم الأرض. بتعاقب مجموعة من الأحداث ،انحدرت قيمة الإله سيت إلى المرتبة الثانية مقارنة مع الإله حورس الذي كان يمثل كل ما هو جيد وإيجابي في الطبيعة كالخصوبة والاستقرار والصحة والغذاء الوفير، بينما لعب سيت دور الإله الشرير الذي يعرقل الشمس ويصرفها عن مسارها في فصل الشتاء، ويسرق أشعتها فيقصر النهار ، هكذا كانت أول ولادة في حضارة وادي النيل لمفهوم اله الشرّ وإله الخير، ثم تطور اسم سيت إلى سات Sat ، ثم إلى ساتانSatan ، وقد تحول الإله سيت في ديانات المنطقة واصبح يتجسد في شخصية الشيطان.

وعن علاقة الأسطورة بالخنزير نشير إلى ان الإله سيت وهو في أوج ممارسته للشر، كان يرمز إليه بالخنزير وهذا ما منح لهذا الحيوان دلالة سلبية ، إذ بات يحيل على الإله سيت

الذي خسر المعركة الثقافية الأسطورية في المجتمع المصري القديم ، حين صار اسمه يعني الشيطنة والقيام بأعمال الشرّ .. ربما لا نجانب الحقيقة إذا قلنا ان تحريم لحم الخنزير، بصيغه المختلفة في الأساطير القديمة يعكس نوعا من الصراع الطبقي والفكري والعقائدي لمجموعات بشرية عاشت في بيئات ذات نمط إنتاج زراعي وبنية اجتماعية طبيقة ، لكنها ظلت تعيش نوعا من الصراع مع جماعات بشرية أخرى لها عقائدها وطقوسها، هذا ما ينطبق على السومريين الذين حرموا الخنزير حفاظا على مصالح مادية محضة ، بينما شيطنه المصريون القدامى انطلاقا من الصراع بين ثقافتين مختلفتين ، أدى إلى خلق إلهين مختلفين وأتباع متصارعين ، أتباع الإله حورس القاطنين في دلتا النيل شمال مصر، المنطقة المعروفة بأراضيها الخصبة ووفرة المياه والمنتوج الزراعي ، وأتباع الإله ست القاطنين بمصر السفلى ذات الطبيعة الصحراوية ، تميزت بقلة الماء والعشب والمحصول الزراعي ، وكثرة الحيوانات الضارة والمفترسة...فلا عجب أن يكون إله سكان شمال مصر ملائماً لطبيعة حياتهم وتصوراتهم ،وانعكاساً لبيئتهم الغنية.في هذه البيئة المتناقضة صنع المصريون القدامى إله الخير ، ليميزوا أنفسهم عن سكان الجنوب الأقل قيمة ومرتبة بإلههم الذي صوروه على شكل الخنزير .

على ضوء ما سبق نخلص إلى أن تحريم لحم الخنزير في الثقافات البشرية القديمة ، يعود إلى خلفية فكرية واجتماعية وليس إلى نجاسته أو إلى تواجد ديدان في لحمه، أو لعدم غيرته على أنثاه كما يدعي البعض ، نجد بعض الثقافات

القديمة حرمت لحم الخنزير على الرجال دون النساء لاعتقادهم بأنه الحيوان الوحيد الذي لا غيرة له على أنثاه ، واعتقدوا أيضا أن الرجل الذي يعتاد على أكل لحم الخنزير سيصبح جباناً ولا جرأة له للدفاع عن زوجته ، وقد أطلقوا على هذا النوع من الرجال لقب الخنزير ، ولكن هذا التفسير لا أساس علمي له ، لأننا نجد الكثير من الحيوانات التي تعرف ظاهرة تزاوج الأنثى مع عدة ذكور ، نمثل لهذا السلوك بما تقوم به قردة البونوبو LES BONOBOS .

ستستمر إدانة الخنزير في الديانات التوحيدية بتحريم أكل لحمه أو التقرب به إلى الله ، اعتمادا على مجموعة من المبررات سبق وأن ذكرناها سابقا مثل عدم غيرته على أنثاه وقذارته وعدم صلاحيته ليلعب دور القربان ... إلخ لكن الغريب في أمر هذا الخنزير أن اليهود حرموا أكل لحمه تكريماً له وليس إدانة له ، لقد منعوا على أتباعهم ذبحه وأكله تقديرا له ، لأنه قتل أدونيس إله أعدائهم الكنعانيين .

نخلص إلى أن تحريم أكل الخنزير يمتد في تاريخ البشرية ، منذ أن كانت الديانات تعتمد على الأشكال الأسطورية للتعبير عن تشريعاتها وتفسير خلق الكون والإنسان إلى أن أصبحت تعتمد على الكتب المقدسة مثل العهد القديم والجديد والقرآن. أسباب التحريم جد مختلفة من أسطورة إلى أخرى ومن دين سماوي إلى آخر، المسيحية لم تحرم أبدا أكل الخنزير، هي متصالحة معه وتعتبره موردا غذائيا مهما ، وبما أن المسيحية قطعت مع القرابين منذ أن قدم المسيح جسده قربانا للتكفير على ذنوب البشر ، لم تحتج إلى صياغة أي قوانين دينية

تفسر فيها علاقتها بهذا الحيوان ، بينما اختلفت أسباب تحريمه بين اليهودية ،يعتقد مارفن هاريس/عالم الانثروبولوجيا أن السبب الرئيسي لمنع استهلاك لحم الخنزير كان اقتصادياً وبيئياً، حيث أن البيئة المثالية لتربية الخنازير تتطلب الماء والأشجار الظليلة المنتجة للبذور ، هذه الظروف كانت نادرة في الشرق الأوسط ، ما دفع إلى ضرورة الحد من تناسل هذا الحيوان حفاظا على المحيط البيئي الهش القليل الموارد ، كان الدين هو الأداة التي تحقق هذا الهدف ، فتم التحريم سواء بواسطة الأسطورة أو بصياغة حدود المنع والتحريم في الكتب المقدسة .

## 11- الجنة والنار بين الأسطورة والدين

منذ أن وجد الإنسان على الأرض حاول أن يفسر الظواهر التي تحيط به أو التي كانت تثير مخاوفه.. حاول أن يفسر الزلازل والبراكين والبرق والفيضانات والرياح ، لكنه كان يشعر بعجزه عن تفسير هذه الظواهر، فاخترع طقوسا ما قبل دينية ، ووضع لنفسه ولعشيرته حدودا لا يجب تجاوزها ، ثم اخترع التوتم وأحاطه بهالة من التقديس ، ليحافظ على علاقات اجتماعية رصينة قوية منصهرة في بوتقة واحدة .

مع استقرار الإنسان المزارع استقر معه الدين ، لكن دورة الحياة جعلته يصطدم مع الموت ، كان الصدام مأساويا ومؤلما ، لم يستطع الإنسان أن يقبل وجود الموت إلى جانب الحياة ، لهذا كان عليه أن يخترع شيئا جديدا يجعله يتقبل نهايته المأساوية ، فاهتدى إلى فكرة البعث والحساب والخلود والثواب والعقاب والجنة والنار .

اشتركت كل الأساطير وجميع الأديان التوحيدية في فكرة الخلود ،الفكرة الرمزية التي صارت ميزانًا للعدل في الكون، ونبراسًا للحياة المؤقتة على الأرض. كانت عقيدة البعث والخلود أهم ما آمن به المصري القديم وسجله على جدران المعابد والأهرام وفى كتاب الموتى الشهير. إن إيمان المصريين القدامى بعقيدة البعث والخلود كان نتيجة ملاحظته لبعض الظواهر الطبيعية ، لاحظ أن بعد كل غروب للشمس يظهر شروقً جديد، وبعد كل فيضان يأتي فيضانً آخر، وبعد الزرع يأتي الحصاد ، ثم يتجدد الزرع مرة أخرى ، إنها سنة

الوجود ودورة الكون ، فلماذا لا يخضع الإنسان هو الآخر لهذه الدورة ؟ قدمت الأساطير الجواب ، وأكدت للمصري القديم وجود حياة أخرى أبدية بعد الموت، يستقر فيها بعد أن يخضع للحساب ، فإذا كان قلبه أخف من الريشة ، سيخلد في «يارو» جنة الأبرار وهي تتكون من حقول أوزيريس إله العالم السفلي ورب الموتى ،أما إذا رجحت كفة القلب على كفة الريشة سيقاد الميت إلى النار التي يطلق عليها اسم "سج".

اعتقد المصريون القدامى أن إقامتهم بالقبر بعد الموت مؤقتة ، في انتظار المحاكمة الأخيرة الحاسمة، حيث سيمثل الميت أمام أوزيريس ليحكم عليه بالدخول إلى الجنة أو تقديمه إلى الوحش عمعموت أو"أمميت" (Ammit أو Ammut) ليلتهمه .

عمعموت كائن خرافي يُصوَّر عادة على شكل مخلوق هجين يتكون من جزء من الأسد وآخر من فرس النهر وجزء من تمساح ، يحيل وجود عمعموت في الثقافة الفرعونية على المفهوم المتعدد الأبعاد للحياة الأخرى والقضاء على الشر والظلم ، ظهور هذا الوحش مرتبط بتحقيق العدالة في العالم السفلي وضمان استقرار الكون السماوي بالحساب العادل بعد الموت ومعاقبة المذنبين .

إن فكرة البعث والخلود وجهت الحضارة الفرعونية وأكسبتها الشكل الذي نعرفها به ، وما بناء الأهرام وتطور تقنية التحنيط إلا نتيجة من نتائج هذا الاعتقاد ، لقد كتب المصريون القدامى على جدران معابدهم نصوصا تقر بمعتقدهم ، يمكن

أن نمثل لها بالنص التالي : «إن أبدانكم سوف تقوم من أجلكم.. إن عظامكم سوف تلتحم من أجلكم.. سوف ينزعون عنكم أكفان المومياء وتلقون جانبًا أقنعة المومياء.. تحرروا مما يضجركم تتمتعوا بحقول «يارو» الجنة" ،وقد رد في كتاب الموتى التعويذة 110 وصف للجنة أو حقول أوزيريس وهي تتكون من أنهار تجرى بمياه زرقاء ، يبحر فيها الميت الخالد وحده على متن مركب صغير ،في بعض المشاهد تكون زوجته خلفه ، كما تصوره مشاهد أخرى جالسا أمام مائدة القرابين، يأكل ويشرب من الطعام والفواكه والمشروبات، منها :الخبز، البيرة ، البصل ، اللحم ، الخس ، البط ، الإوز، ومن الفواكه :الرُمان، العنب، التين.

كان المصريون القدامى يعتقدون أن الجنة توجد تحت الأرض، فيها أنهار كثيرة تسقي حقول أوزيريس أين سيستقر كل الأبرار ،كما اعتقدوا أن النار أو الجحيم هي للأشرار، وأطلق عليها اسم «سج»، ومعناها في اللغة المصرية القديمة «النار»، وقد تخيلها المصري القديم كما وردت في كتاب الموتى ، التعويذة رقم 17. عبارة عن بحيرة باللون الأحمر، يلقى فيها الأشرار فتحرق أجسادهم، وهي محاطة بسور أسود سميك، ليس له مدخل أو مخرج ،مغلق تمامًا، الداخل إليها مفقود . يحيط بالجنة من الخارج عشرة ثعابين من نوع الكوبرا القاتلة، وفى أركانها الأربعة تتواجد ثمانية أو أربعة قردة قابعة على كراسي لحراستها ومنع الآثمين من الفرار. وردت العديد من صور الجحيم أو النار في كثير من البرديات وعلى المقابر وإن اختلفت في بعض التفاصيل، إلا أن

المضمون والأصل واحد، ألا وهو تصوير حرق الآثمين في بحيرة النار بعد فصل رؤوسهم عن أجسادهم ، وتقييد أذرعهم، وفى بعض المشاهد صوروا وهم يحرقون في وضع مقلوب.

أمن السومريون بوجود الحياة بعد الموت والحساب والجنة والنار ، وقد عبروا عن هذا الإيمان في الكثير من النصوص ، منها نص معروف باسم دلمون بمعنى الجنة جاء فيه: «أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان نظيف» فى هذا الفردوس يعيش «إنكي» إله الماء العظيم، وزوجته التي ترمز إلى الأرض و الأم.

يعتقد السومريون أن إنكي (أو إنكي) إله السماء والأرض والخصب يمتلك قوة الإبداع والحكمة والتنظيم، ويعتبر مؤسس حضارة سومر، يتم تجسيده بجسد بشري مع زينة إلهية وأجنحة ، أما زوجته فهي إلهة الحب والجمال والخصوبة في الثقافة السومرية، ظهرت في النقوش وهي تحمل رموز الأنوثة والجمال، ويُعتقد أنها تمتلك قدرات خاصة في منح الحياة وتوفير الغذاء والخصوبة للطبيعة والبشر، في الأساطير السومرية يتم التركيز على علاقة الزواج والشراكة القوية بين إنكي وزوجته للدلالة على التوازن والتكامل بين القوى الرجالية والأنثوية. خلق «إنكي» الفردوس الأرضي " دلمون " حينما أخرج ماءه وسقى به زوجته الأرض، فحول «دلمون» إلى جنة إلهية خضراء، ومن اتحاد الماء "إنكي" بالتربة يمتلئ الفردوس بالحقول والأشجار والثمار.في مقابل الجنة الأرضية التي خلقها هذا

الإله ، وفقًا للاعتقادات السومرية، يُعتبر العالم السفلي مأوى الأرواح بعد الموت، يمكن الوصول إليه عبر أبواب في الأرض أو في الجبال. بعد الموت تخوض الروح رحلتها الأخيرة نحو العالم السفلي لتبدأ حياتها الأبدية . تصف الأساطير السومرية العالم السفلي بأنه مكانً مظلم وغامض يسكنه الأموات وكل الكائنات الشريرة، وهو مقسم إلى ثلاث مملكات : مملكة الظلام ومملكة الشبق ومملكة الجفاف.

حظي العالم السفلي باهتمام السومريين ، ومارس عليهم حضوره الدائم في حياتهم اليومية ، لهذا نظموا علاقتهم به بمجموعة من الطقوس والصلوات والقرابين والعبادات المختلفة بهدف تهدئة الأرواح والآلهة، والحصول على امتيازات بعد الموت .

اعتقد السومريون أن كل أرواح الموتى ترحل إلى «الجحيم السومرى» أو العالم السفلى "كور" دون تمييز، لا فرق بين الصالح والطالح، والغنى والفقير، والملك والرعية، كل الأرواح ترحل إلى نفس المكان ، لكن كل إنسان يحتفظ بنفس المكانة الاعتبارية والاجتماعية التي كانت تميزه في الحياة الدنيا، ورد فى إحدى الألواح السومرية أن أحد الملوك بعد موته قام بتقديم القرابين والهدايا إلى آلهة العالم السفلى، ليتم اقتياده إلى مكان تمت تهيئته خصيصا له ليعيش حياته الأبدية في سعة من الرخاء والطمأنينة .

تحكي الأساطير السومرية أن الروح تخرج من الجسد لتباشر رحلتها نحو العالم السفلي عبر فتحات في الأرض كتلك التي تشرق منها الشمس، أو التي تغرب منها أو من حفرة القبر، بعد نزول روح المّيت إلى أرض اللاعودة يجد أمامه النهر"

أرالو" ووحش العالم السفلي المعروف باسم "أوتوكا" أو "أوتوكون" وهو كائن خرافي ، وصفه السومريون بأنه وحش ضخم ومروع يمتلك قوة هائلة وجسم ضخم يشبه الأفعى أو الحية ، وهو حاكم الظلام والفوضى ، يمثل الشر والخراب في الأساطير السومرية ، يُعتقد أنه يسكن في أعماق الأرض ويحكم على الأرواح الشريرة والموتى في العالم السفلي. وبينما يعيش الميت حالة الخوف والشك ، يقترب منه ملاك برأس طير ، يحييه وينقله على قاربه إلى الطرف الآخر حيث توجد بوابات مدينة الموتى.

عالم الموتى حسب الأساطير السومرية ،عالم حصين خلف سبعة جدران عالية، وسبع بوابات حصينة عليها حراس شداد غلاظ، عندما يقترب القادم من الدنيا من البوابة الأولى، يعلن عن اسمه ليسمعه «اريشكيجال» إله العالم السفلى، ثم يقاد عبر البوابات السبع، وعند كل بوابة يتخلى عن شيء من متاعه وملبسه وزينته وفق القوانين الموضوعة لذلك العالم، إلى أن يقف أمام «اريشكيجال» وآلهة العالم السفلي لتقرر مصيره ومكانه الذي سيقضي فيه حياته الأبدية بعد أن يكون قد جرد من كل ألبسته وزينته ويصبح عاريًا فى عالم الأموات.

جاء فى توراة موسى عن الجنة التي خلقها الله لآدم وحواء :" وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ"" سفرالتكوين 9"

في الكتاب المقدس اليهودي "العهد القديم"، يُذكر في سفر التكوين (تكوين 2:8) أن الله خلق حديقة في عدن، وهي تُعرف أيضًا باسم "جنة عدن" أو "جنة الله". وتقع هذه الجنة شرقي عدن ،توصف بأنها مكانً جميلً مغمورً بالخضرة والأشجار الجميلة والأنهار. وفقًا للتوصيف في سفر التكوين، كانت جنة عدن مكانًا خاصًا حيث وضع الله آدم وحواء، أول البشر، ليسكنا فيها ويعيشا في سعادة واتصال مباشر مع الله. توجد في الجنة أيضًا شجرة حياة وشجرة معرفة الخير والشر، أمر الله آدم وحواء بعدم أكل ثمرة شجرة المعرفة، لكنهما خالفا هذا الأمر ، فأخرجهما من الجنة. وهكذا نشأت قصة خروج آدم وحواء من الجنة وبداية الحياة البشرية على الأرض.

نشير إلى أن عدن هي مدينة تاريخية تقع في اليمن الحالية، وفقًا للتفسيرات التقليدية في الكتاب المقدس اليهودي، يُذكر أن الجنة التي خلقها الله كانت تقع شرق عدن، وعلى الرغم من أن موقع الجنة الدقيق ليس محددًا بوضوح، إلا أن الإشارة إلى عدن يحيل على فكرة وجودها في المنطقة الشرقية من المدينة. هناك تفسيرات مختلفة ذات دلالات رمزية للجنة وموقعها في العهد القديم، وليس هناك اتفاق مطلق بين العلماء والمفسرين بشأن مكانها الحقيقي. يعتبر الوصف الجغرافي والموقع الدقيق للجنة في عدن جزءًا من الأساطير والروايات الدينية التي ترمز إلى حالة البراءة والاتصال المباشر مع الله.

من هنا نخلص حسب الكتاب المقدس اليهودي " العهد القديم " أن الله خلق الجنة شرق عدن، أي على الأرض التي نعيش عليها ، وليس في السماء كما يرى البعض، وقد وضع

الإنسان الأول عليها، جاء في سفر التكوين : «وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا»، «سفر التكوين15»، كما وفر أربعة أنهار لتسقي الجنة الأرضية كما جاء في التوراة «وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: فِيشُونُ، وجِيحُونُ وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَات" "سفر التكوين 10 – 14" لا تؤمن اليهودية بوجود جنة مادية فيها أشجار وبساتين وأنهار وطيور، لأن جنة عدن التي خلقها الله على الأرض ووضع فيها آدم وحواء ،أغلقت نهائيا بعد أن طردهما الله منها .

جاء في الكتاب اليهودي المقدس : «فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»، "التكوين 24"

الكروبيم أو (الكروبوبيم) هي كائنات روحية أو مخلوقات سماوية تُذكر في العديد من الكتب والتقاليد الدينية، بما في ذلك الكتاب المقدس اليهودي والتقاليد اليهودية والمسيحية. يُعتقد أن الكروبيم يشكلون جزءًا من الهيكل السماوي أو العرش الإلهي، ويُصوَّرُون عادة على شكل مخلوقات ذات أجنحة مع وجوه أو أشكال آخرى. توجد إشارات إلى الكروبيم في الكتاب المقدس اليهودي في مواضع مثل سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين. يُذكَرُ أن الكروبيم تم وضعهم على غطاء تابوت العهد في الهيكل اليهودي القديم، ويُفترَض أنهم كانوا يرمزون إلى الحضور الإلهي والقدسية. تباين وصف وتصوير شكل الكروبيم بين الثقافات المختلفة. تم

تصويرهم بأشكال مختلفة، أجساد بشرية مع أجنحة ووجوه حيوانية أو طيور. يرمز الكروبيم في العديد من التفسيرات إلى الحضور الإلهي والقدسية وحماية الأماكن المقدسة.
عوض الجنة المادية ،تؤمن اليهودية بملكوت الله أو مملكة الله السماوية التي تسكنها أرواح الملائكة، بعد القيامة سيدخلها القديسون والأبرار والصالحون الذين سيتحولون إلى أرواح نورانية تسبح لله.
يقول بولس الرسول في رسالته لأهل كورنثوس مبشرًا بالجنة: «بها كما هو مكتوب، ما لم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان ما اعده الله للذين يحبونه" بولس الرسول، المعروف أيضًا باسم بولس الأمين، هو شخصية مهمة في المسيحية وأحد رسل يسوع المسيح، ولد في تارسوس في القرن الأول الميلادي، وكان من أصل يهودي ولكنه حاز على التعليم اليوناني الثقافي، في بداية حياته كان بولس معاديًا للمسيحيين وشارك في اضطهادهم. حدث تحول كبير في حياته عندما ظهر له يسوع في رؤية أثناء سفره إلى دمشق وأعلنه رسولاً للأمم ، بعد ذلك أصبح بولس من أبرز المبشرين والمعلمين في العصر المسيحي المبكر.
تُعَتَبَرُ رسائل بولس الرسول أحد أهم مصادر التعاليم المسيحية واللاهوتية، تتناول مواضيع مثل الخلاص بالإيمان بالمسيح، والوحدة في المسيح، وأهمية الحب والتسامح والخدمة. يُذكر أن بولس أصبح رمزًا للتحول الروحي والرحمة والمحبة في العالم المسيحي. توفي حوالي العام 67 ميلادية في روما، أين

تعرض للاضطهاد وأُعدِمَ بقطع رأسه بأمر من الإمبراطور نيرون.

تعني الجنة عند المسيحيين الخلاص من الشقاء الموجود في الأرض، وقد تحدث العهد الجديد عن الحياة الأبدية؛ بشقيها النار الأبدية والجنة الأبدية، والعهد الجديد هو جزء من الكتاب المقدس في المسيحية، ويتألف من مجموعة من الكتب والرسائل التي تُعتَبَرُ مقدسة ومهمة في العقيدة والتعاليم المسيحية. يُعد العهد الجديد الجزء الثاني من الكتاب المقدس، ويلي العهد القديم. يتكون من الأناجيل الأربعة: متى، مرقس، لوقا، يوحنا. تروي الأناجيل حياة يسوع المسيح، تعاليمه، صلبه، قيامته وصعوده إلى السماء.كما يتكون كتاب العهد الجديد من رسائل بولس الرسول ورسائل العهد العام التي تتضمن رسالة يعقوب، ورسالة بطرس، ورسالة يوحنا، ورسالة يهودا.

إلى جانب إيمانهم بالجنة والنار آمن المسيحيون بجنة الفردوس على الأرض، التي ستتحقق حسب اعتقادهم عندما يعود المسيح إلى الأرض لمدة ألف سنة، ليقول «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية»، ويقول «طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه".

تعتقد بعض التيارات المسيحية بعودة المسيح إلى الأرض في نهاية الزمان، ليقيم الملكوت السماوي على الأرض ، سيعرف بعدة ألقاب بعد عودته من السماء منها : "الملك الراعي"، "المسيح الملك" أو "ملك الملوك".

إن الجنة أو «ملكوت السموات» في المفهوم المسيحي ،هو المكان الذى أعده الله لمحبيه منذ أن خلق العالم، وفيه يعيش

الجميع كملائكة الله يحيون معه إلى الأبد، ويتمتعون بعشرته ولذة تسبيحه.. ما يعني عدم وجود الشهوات والملذات المادية فى هذا الملكوت؛ لأن الماديات كلها ستفنى ويفنى معها الجسد لتبقى الروح بغير وجود مادي.

يتطابق العهد القديم والعهد الجديد للكتاب المقدس في وصف "جهنم" (Gehenna) وهي كلمة أصلها عبري (Ge-Hinnom)، تعود أصولها إلى العبرية القديمة. تشير هذه الكلمة إلى وادي جهنم أو وادي بن هنوم ، الذي كان واديًا وعرًا يقع جنوبي بيت المقدس خارج أسوار المدينة القديمة، وكان يطلق عليه قديمًا اسم وادى الموت، حيث كان اليهود يلقون فيه النفايات وجثث الموتى من المجرمين، ارتبط بأحداث وممارسات دينية وثنية سابقة، حيث كان يُستَعمل كموقع لعبادة الآلهة الوثنية والتضحية بالأطفال في بعض الأحيان.. كانت «جهنوم» أو «جهنم» بالعربية ، ذات رائحة نتنة، يتصاعد منها ضباب ودخان الحرائق باستمرار، وهى موضع للنجاسة والقاذورات والجثث، ونارها لهيب لا ينطفئ.

استعار الكتاب المقدس اسم جهنم رمزًا للتعبير عن العذاب الأبدي الذى سيلقاه الأشرار الذين لا يؤمنون بالله ولا ينفذون وصاياه، وقد أخبرهم بأنهم سيلقون في بحيرة النار والكبريت ، فلا يموت دودهم ولا تنطفئ نارهم .اعتمد اليهود على محيطهم لخلق صورة سمعية لمكان العذاب الأبدي . في الكتاب المقدس العبري، يشار إلى وادي جهنم على أنه مكان للعقاب الروحي والجسدي، وأحيانًا يُرمز به للعذاب الأبدي.

في التراث الديني المسيحي، استُخدمت كلمة "جهنم" للإشارة إلى مكان العذاب الأبدي للأرواح الشريرة بعد الموت، وتظهر هذه الفكرة في بعض نصوص العهد الجديد، مثل إنجيل متى وإنجيل مرقس .يعتقد المسيحيون أن جهنم تُعد وجهة نهائية للأرواح الشريرة بعد الموت، حيث تعاني من العذاب والانفصال الأبدي عن الله

قال المسيح: «إن كانت يدك اليمنى تُعثرك، فاقطعها والقها عنكَ، لأنه خير لك أن يهلك احد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم" تفسير جهنم في العقيدة المسيحية يعتمد على عدة نصوص من العهد الجديد، مثل إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا ، في المسيحية تُعتبر جهنم جزءًا من الوجود والملكوت الروحي، حيث تُفهَم بأنها حالة من الانفصال الأبدي عن الله والمشاركة في عذاب الشيطان وأرواح الشر، ويُعتَقَد أنها تُمثِّل العدل الإلهي والعقاب الناتج عن رفض الله والحياة.

الجنة في الإسلام هي البستان الذى تجرى من تحته الأنهار ، فيه خمر ولبن وعسل، وفيها منازل من لؤلؤ وزمرد وياقوت، وهى تختلف عن جنان الأديان السماوية الأخرى وغير السماوية، هي نعيم حسى خالص.

يؤمن المسلمون بأن الجنة دار نعيم لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، ولا يُمكن أن يتصور العقل هذا النعيم، فقد قال الله في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"

أعدت الجنة وفقًا للتصور الإسلامي للمؤمنين الموحدين ، أصحاب الأعمال الصالحة، وأعدت النار لذوي الأعمال

الفاسدة ،ينالون فيها عذابا أبديا . يدخل المؤمنون الجنة في أكمل صورة ،وينعمون بأكمل نعيم، الجنة في الإسلام درجات متفاوتة حسب ما قدم الإنسان من أعمال صالحة، خازنها هو رضوان، لا يدخل الجنة أحد بعمله ، وإنما يدخلها برحمة الله وفضله، فهي ليست ثمنًا للعمل، وإنما يكون العمل سببًا لدخولها، قال النبي: ««لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَه"

اخذت الجنة أسماء كثيرة في القرآن : فهي دار السلام: "لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ "

وهي جنات عدن: "وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" .

وهي جنات النعيم: "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ."

وهي دار المتقين: "وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ" .

وهي جنات الفردوس: "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا."

وهي جنة الخلد: "قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا" .

وهي الغرفة: "أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا".

وهي دار المقامة: "الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ".
وهي جنة المأوى: "أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" .
وهي الحسنى: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" .
وهي المقام الأمين: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ" .
وهي مقعد صدق: "فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ".
في مقابل الجنة توجد النار في الإسلام، وهي في القرآن هاوية سحيقة لها سبع طبقات أو دركات مرتبة واحدة فوق أخرى ، أسفلها أشد حرارة ولهيبً من أعلاها، وأطلق القرآن عليها أسماء حسب مواقعها في التسلسل العمودي ودرجة حرارة لهيبها، وللنار أسماء عديدة من بينها : جهنم: " وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ" والجحيم: "وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" والنار: "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" والحطمة: "كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة"ُ وسقر: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ" .
والهاوية: "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ" .

## 12- طرد آدم من الجنة، قراءة فلسفية

يمكن أن ننظر إلى قصة طرد آدم وحواء من الجنة ، من زاوية دلالتها الرمزية لطرح بعض الإشكاليات الفلسفية الوجودية. ذكرت قصة آدم وحواء في العهد القديم ، أثناء سرد حكاية خلق الكون والإنسان ، تقول الحكاية أن الله خلق آدم في اليوم السادس ، تكررت نفس القصة في كتاب العهد الجديد ، ثم جاء سردها في القرآن .

خلق آدم من تراب أومن صلصال ، ثم نفخ فيه الله من روحه، فبعثت فيه الحياة . اسم آدم له عدة معاني وتفسيرات في العديد من الثقافات واللغات ،في العقيدة اليهودية والمسيحية والإسلامية ، يُعتَبر آدم أول البشر الذي خلقه الله، ويشير اسمه إلى الأصل الأول للإنسانية ،و أتت كلمة "آدم" (Adam) من العبرية وترتبط بكلمة (adamah) التي تعني "التراب" أو "الأرض" ، يمكن أن يعكس اسم آدم الصلة الوثيقة بالتراب والأصل الأرضي للإنسان، أما في بعض الثقافات فتدل الكلمة على الشخص الكامل أو الإنسان المتكامل.

آدم هو مذكر الأرض وهو يحيل على الدور التاريخي للرجل في الوجود ، هو المخصب بينما الأرض هي دائما تلك التي تنتج، آدم هو الذكر والأرض هي الأنثى .. في بداية الخلق كان آدم يجمع في جسده الذكر والأنثى في نفس الوقت ، ولازالت آثار هذا الجمع بادية ، توجد في التركيبة الهرمونية للرجال هرمونات الذكورة وهرمونات الأنوثة.

لم يبق الرجل واحدا ووحيدا ، تحكي قصة الخلق أن الإله خلق المرأة من ضلع أدم ، سميت حواء Hawwa ، ويصورها الكتاب المقدس اليهودي شريكا أولا لأدم وأما للبشرية ، أما أصل هذا الاسم فهو مشتق من العبرية من كلمة (Chavvah) التي تعني "الحياة" أو "المحيا"، ويعكس هذا المعنى ارتباط حواء بالحياة والخلق البشري.

حواء هي الأنثى الموجودة أصلا في آدم ، أعلنت قصة الخلق العبرية إن آدم خلق على صورة الله ..وتحكي أنه كان يعيش في جنة عدن ، وعندما أخرج الله حواء من ضلع أدم ، اصبحا يعيشان معا وسط نعيم الجنة التي وفرت لهما كل ما يحتاجانه من أكل وشراب ، لم يضطرا إلى العمل ليحصلا على قوت يومهما ،كانا يعيشان السعادة المثالية ، لا يفكران في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، كانا يعيشان خارج أنساق الزمن ، لأن الزمن لم يكن موجودا أصلا، ولم يفرض علهما الله أية قيود أو موانع إلا ممنوعا واحدا ، حذرهما من مغبة الاقتراب من شجرة واحدة ، لم يكن لهما الحق أن يذوقا منها ، كل ثمار الأشجار الأخرى مباحة، إلا ثمار تلك الشجرة ، شجرة معرفة الخير والشر. قال لهما الله : "يمكن أن تأكلا من ثمار كل الأشجار إلا ثمار هذه الشجرة ، وفي حالة خالفتما هذا الأمر سأغضب عليكما ، وأنزل عليكما عقابي ، سأحرمكما من الخلود وأجعلكما تموتان .."

كانت لآدم وحواء حرية الحركة والتمتع بنعم الجنة ، لكنها كانت حرية مقيدة ومشروطة ، حرم عليهما الاقتراب من شجرة المعرفة .

وهما داخل الجنة العالم اللامحدود ، كانا يشعران بضغط خطابين متناقضين ،خطاب الحرية والإباحة وخطاب المنع والتحريم ، وكان عليهما أن يتعايشا مع الخطابين معا ، لم تكن الحرية بالمعنى الصحيح متاحة لأن خطاب المنع والتحريم كان مهيمنا وحاضرا بقوة بما أنه كان مفروضا عليهما .أخبر الله آدم وحواء بالمسموح والممنوع ، لم يكن أمامهما خيار غير تقبل الوضع كما هو دون استفسار أو احتجاج ، إلى أن التقت حواء بالثعبان فأخبرها بان الله لم يفصح لهما عن حقيقة ثمار شجرة المعرفة. لم تكن حواء تعرف إلا حقيقة واحدة ... كانت تظنها مطلقة وثابتة لأن مصدرها الله ، وها هو الثعبان يعلن لها عن وجود حقيقة أخرى مغيبة يخفيها الله عنهما.

كان اللقاء بالثعبان مصدر قلق قاتل ، كانت حواء تسمع صدى ذلك القلق وهو يتحول إلى تساؤلات مؤرقة : " يا إلهي ، ماذا يقع ؟ هل هناك حقيقة ثانية ؟ ما هي ومن يعرفها ؟ " إنها حيرة السؤال وبداية البحث عن الحقيقة .

وضع الثعبان نفسه كمالك لحقيقة ثانية ، حقيقة تجهلها حواء كما آدم ، الثعبان هو من يحمل الحقيقة التي تخالف حقيقة الله ... لا شك أن حواء عاشت حالة من الاضطراب النفسي ، لا شك أنها انتقلت لأول مرة من حالة الهدوء الميتافيزيقي إلى حالة القلق الوجودي. بهذا اللقاء بين حواء والثعبان لن تبقى الجنة جنة ، ارتفع فيها هاجس طرح الأسئلة والبحث عن الحقيقة ، أرادت حواء أن تعرف الحقيقة التي يعرفها الثعبان ويخفيها الله عنهما .

أمام عبء التساؤلات التي أثقلت كاهل حواء ،نطق الثعبان وأفصح عما يحمله من معرفة قال لها :" من أكل من شجرة المعرفة لا يموت ،وإنما ستفتح عيناه ليتساوى مع الله "
ألقى الثعبان بحقيقته على حواء وانصرف ، لكنه كان متأكدا أن ما قاله سيغير كل نواميس الوجود بالجنة ،ويخلخل كل الحقائق التي جعلها الله مفسرة لعملية خلق الإنسان والكون برمته.
كانت خطوات حواء نحو الشجرة الممنوعة بطيئة مترددة ، ولكن يحدوها عزم قوي للوصول إلى الهدف ،لاكتشاف ما يخفيه الله عنهما ، اقتربت من الشجرة مدت يدها ، قطفت ثمرة من ثمارها نظرت إليها ، تأملتها بقلق كبير ، كان آدم بجانبها ينظر إليها باستغراب وتوجس ، ودون تردد قضمت منها قضمة واحدة ، ثم نظرت في عيني آدم وقالت له :" كل من ثمرة شجرة المعرفة ، ستظهر لك الحقيقة " قضم آدم من الثمرة ، وفجأة اكتشف أن جسده عار، أحس بالخجل فأسرع ليخفي عورته عن الله.
بمجرد ما ذاق آدم من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر أحس بالخجل ، وهذا الإحساس هو بداية الوعي بالذات ، الذي لم يكن يدركه قبل أن يخوض تجربة عصيان أمر الله ، بمجرد ما نشأ الوعي في ذاته أنزل الله عليه حكمه ،طرده من الجنة بعد أن قرأ عليه البيان التالي :" آدم ... اسمع يا آدم ... سيكون عليك ان تحصل على خبز يومك بعرق جبينك ، أما حواء فستلد أطفالا، ومع كل ولادة ستعيش معاناة الألم ،أما الثعبان فقد حكمت عليه بالزحف ، سيمشي على بطنه ويأكل التراب إلى الأبد "

قرأ الله البيان على آدم وحواء والثعبان ، ثم طردهم من الجنة وأنزلهم إلى الأرض.

يبدو من خلال الوقائع والأحداث أن الثعبان كان ينتمي إلى درجة راقية في هرم المخلوقات ، لكن الله سينزله إلى أدنى درجات الخلق عقابا له ، سيجعله يزحف على الأرض ليلامس بطنه التراب ، والتراب هنا يحمل دلالة المادة أي العنصر الأدنى في كل الديانات . إنها بإيجاز قصة طرد آدم وحواء من الجنة ، كما وردت أولا في العهد القديم ، ثم ظهرت بنفس التفاصيل في العهد الجديد وتكررت في القرآن، لكن ماذا يمكن أن نفهم من هذه القصة ؟ ماذا حدث بالضبط لآدم وحواء؟ وكيف نقرأ القصة انطلاقا من التصور الفلسفي؟

لقد طرد الله آدم وحواء من الجنة وحكم عليهما بالألم وليس الموت، حكم على آدم بأن يأكل من عرق جبينه ، أي عليه أن يعمل ليحصل على خبز يومه ، سيذوق يوميا مرارة الألم بسبب العمل المضني ، ولن يحصل على قوت يومه إلا تحت وطأة الألم ، بينما حكم على حواء بالإنجاب مع ما يصاحبه من معاناة المخاض وألم الوضع .

حينما حذر الله آدم وحواء من مغبة الاقتراب من شجرة معرفة الخير والشر هددهما بالموت ، لكنهما لم يموتا مباشرة بعد عصيان أمره ، اكتفى بطردهما من الجنة ليضعهما أمام تحديات جديدة وهما يواجهان مصيرهما الجديد على الأرض ، ولكن لماذا لم يموتا مباشرة كما أخبرهما الله ؟

كان آدم وحواء يعيشان حالة الخلود في جنة عدن ، كانا يعيشان في عالم غير مادي يغيب فيه الجسد ، لكن اقترابهما من شجرة المعرفة وتناول ثمارها أكسبهما الجسد أي أكسبهما

ذاتا تحيزت لأول مرة في المكان والزمان ، وكان الخجل أول إحساس نشأ فيهما نتيجة هذا التحيز الذي نقلهم من البعد الميتافيزيقي إلى البعد المادي ، لم يعودا روحا بدون جسد ، أصبحا مادة، وبحضور المادة نشأ الزمن بشكل طبيعي ،لأن المادة والزمن عنصران متلازمان ، لا توجد مادة دون زمن ، ولا يبدأ الزمن إلا لحظة ظهور المادة ، وحينما تدخل المادة في علاقة مع الزمن يحدث التلاشي الذي يتجه بالمادة نحو الفناء أو النهاية أو الموت .

حينما كان أدم وحواء في الجنة لم يكونا مادة ، لم يكونا محكومين بقوة وفعل الزمن، لكن حينما اختارا أن يأكلا من ثمرة شجرة المعرفة، اختارا أن يتحولا إلى كائنين ماديين عارفين ، اختارا أن يلتحما مع جزئهما المغيب ، اختارا الجسد وبالتالي اختارا أن يخضعا لقانون التلاشي عبر الزمن ، لهذا رأى الله عدم جدوى بقائهما في الجنة ، لأن الجنة هي للأزلي، للامادة وللازمن ، بينما الأرض هي المكان الملائم للمادة والزمن.

لم يمت آدم وحواء مباشرة بعد عصيان أمر الله، وإنما طردا من الجنة لأنهما تحولا إلى جسدين سيخضعان على الأرض لتجارب كثيرة، أقساها تجربة التلاشي ، أكيد ستتعمق معرفتهما وتجاربهما ، ولكن في آخر المطاف سيواجهان أقسى تجربة ألا وهي تجربة الموت ، وقد عبر الشاعر بودلير عن هذه التجربة المؤلمة في قصيدة بعنوان العدو

أيها الألم! أيها الألم! الزمن يأكل الحياة،
والعدو الظلامي الذي يعض قلوبنا
من الدم الذي نخسر ينمو ويتشدد!

l'ennemi

Ô douleur ! ô douleur ! Le Temps mange la vie,
Et l’obscur Ennemi qui nous ronge le cœur
Du sang que nous perdons croît et se fortifie !
Charles Baudelaire, Les Fleurs du mal

النص مترجم إلى الإنجليزية

the enemy
Oh pain! Oh pain! Time devours life,
And the dark Enemy that gnaws at our hearts
From the blood we lose grows and strengthens!
Charles Baudelaire, Flowers of Evil

إن الزمن بقانونه القاسي يؤلمنا لأنه يضع حدين لوجودنا دون أن يمنحنا فرصة الاختيار ، كل وجودنا يتحرك بين حدين لا يمكن تجاوزهما ،حد البداية وحد النهاية ، الزمن يؤلمنا لأننا مهووسون بفكرة الخلود ، لكن في النهاية نعرف أن الموت ينتظرنا ، فنشعر بمرارة وجودنا المادي..

ما حدث لآدم وحواء فتع أعيننا لنكتشف الفرق بين الوجود والحياة ،وهي إشكالية فلسفية عبر عنها الفلاسفة على مر التاريخ البشري ، يرى أفلاطون أن الوجود مرتبط بالعالم المادي بينما الحياة توجد ما وراء المادة ، يمكن أن نعتبر الحكم على آدم وحواء بمثابة سقوط في العالم المحسوس الأفلاطوني ، وهو عالم له مواصفاته الخاصة لذا سيتحول آدم وحواء إلى جسدين ماديين يلبسهما الله الجلد البشري ، قبل التحول وإدراك الذات لم يكن لهما جسد أوجلد بما أنهما كانا

يعيشان في عالم غير مادي. في الجنة كان آدم وحواء بالقرب من الله لم يعرفا الألم و الموت، كانا بعيدين عن العالم الحسي ، الطرد من الجنة هو بمثابة سقوط وجودي ، سقوط في البعد المادي السفلي الذي لم يستعدا له . بمجرد ما أكل آدم من ثمار شجرة المعرفة رأى نفسه عاريا ،فأحس بالخجل ، ولكن لماذا الإحساس بالخجل ؟ إن إدراك آدم وحواء لجسديهما ، هو بداية الوعي بذاتيهما ، وبخروجهما من الجنة ودخولهما عالم الأرض يكونان قد دخلا عالم التمثيل أو عالم الصورة .

إن الخجل مرتبط ارتباطا وثيقا بعالم الصورة ، الذي يفترض وجود الآخر l'autre ، في غياب الآخر لا يمكن أن يشعر الفرد بالخجل من جسده العاري ، نستحم ونحن عاريان دون أن يعترينا الخجل من أجسادنا، إننا نأخذ بعين الاعتبار الآخر ، هو من سيكون مشكلتنا المستعصية ،ألم يقل سارتر :

" الجحيم هو الآخر ".

إن الإحساس بالخجل عند أدم بعد أن رأى لأول مرة صورة جسده وصورة جسد شريكته حواء ،يؤرخ لبداية نشوء الوعي بالذات ، إنها أول لحظة سيعرف آدم أن له جسدا وذاتا وهي أول لحظة يكتشف فيها وجود الآخر كجسد وذات مستقلين عنه ، لم تكن الصدمة خفيفة ، كانت مدوية ومقلقة ، إنها صدمة المعرفة، حينما قال الثعبان لحواء :" إن الثمرة ستفتح عينيكما وتتساويان مع الله " كان يعرف ماذا يقصد ،لأنه كان على وعي تام بأن المعرفة ستغير آدم وحواء، ستنقلهما من مستهلكين إلى منتجين ، تنقلهما من حالة ما قبل المعرفة إلى حالة المعرفة.

هناك افتراض أن يكون آدم قد رأى نفسه عاريا قبل أن يأكل ثمرة المعرفة، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يعني العري أي لم يكن يعرف الدلالة الأخلاقية للعري ، آدم لم يعش أبدا ثنائية الجسد والروح ،لأن الجنة التي خلق فيها تعتمد على أحادية الوجود ، أو على الأقل هذا ما أريد لآدم أن يعيشه ، لكن فجأة بعد أن أكل ثمرة المعرفة ، أدرك تناقضات ثنائية الوجود ووعاها ، لكنه دفع فاتورة غالية ،طرد من الجنة التي ستغلق أبوابها بعد خروجه منها ، ليحل محلها ملكوت السماء وهذا ما أشار إليه كتاب العهد القديم.

لاشك أن آدم وحواء ، كانا يعلمان نوع العقاب الذي ينتظرهما إن هما عصيا أمر الله ،ولكن رغم ذلك أقدما على هذه الخطوة الخطيرة ، لماذا ؟ ونحن نسعى إلى أن نجيب عن السؤال نفترض أن آدم وحواء كانا يشعران بعدم الرضا في الجنة ، فأقدما على تحدي موانع الله ، قد يكون هذا الإحساس بعدم الرضا هو ما ولد فيهما الفضول وحب الاستطلاع، و التحدي واغتنام أول فرصة أتيحت لهما للوصول إلى حقيقة أخرى حيل بينهما وبينها.

في الجنة كان الله يملك الحقيقة المطلقة وهي التي أرادها لآدم وحواء، لأنه كان يرى أنها هي الأصلح لهما، لكن الثعبان كان يملك حقيقة أخرى تخالف حقيقة الله ،وهي التي كان يراها صالحة لأدم وحواء ، حرص على نقلها لهما ،وهكذا وجد كل من آدم وحواء أنفسهما أمام حقيقتين ... حقيقة لم يختاراها فرضت عليهما أثناء عملية الخلق ،جعلتهما يعيشان حياة رتيبة ، وحقيقة ثانية تمنحهما فرصة الاختيار الحر ولذة

التحدي ، تخلق فيهما مغامرة الإدراك والوعي ، يحققان بواسطتها ذاتيهما ، هذه الحقيقة يملكها الثعبان .
وضع آدم وحواء الحقيقتين في الميزان واختارا حقيقة الجرأة والتحدي والاكتشاف ، رغم أنهما كانا يعرفان أن اختيارهما سيجر عليهما غضب الله. فهل ارتكب آدم وحواء ذنبا ؟ هل سقطا في وحل الخطيئة ؟ إذا سلمنا بأنهما ارتكبا الخطيئة ، لكنهما كانا يجهلان ما هي الخطيئة أصلا ، ما هي أوصافها وخصائصها وحدودها ، لم يسبق لهما أن عرفا التمييز بين الشر والخير، وحينما لا نعرف الفرق بينهما فإن قضية الخطيئة لا تطرح أصلا ، وهذا ما يقول به روسو حينما يقوم بقراءة للإنسان في حالته الطبيعية ، إذ يرى أن الإنسان في تلك الحالة لا يكون جيدا أو سيئا لأنه يكون خاضعا بعفوية لقوانين الطبيعة ، لكنه حالما يوجد تحت ظل الوضع الاجتماعي أي حينما يعيش مع الآخرين ، تبدأ خاصية التمييز بين الخير والشر، أي عندما نتواجد في الإطار الاجتماعي ولم نعد نعيش وحدنا، لم نعد نعيش في الحالة الطبيعية ،لم نعد نعيش حالة العري ، انتقلنا إلى سلطة المظهر الخارجي والمقارنة والمنافسة والتمثيل ، نصبح نعيش تحت استبداد سلطة الصورة.
أحدث آدم وحواء قطيعة مع عالم الجنة القائم على وحدة الوجود، ارتكبا جرم القطيعة مع حياة الالتحام مع الجنة ، التي تعتبر كلا لا يتجزأ، كان آدم وحواء جزء من ذلك الكل الذي لا يوجد بدونهما ، كما لا يمكن أن يكون لهما وجود خارج الكل ، لا تقبل الجنة التجزيء والانقسام والتشتت والثنائية

والتعدد ، كل شيء فيها واحد ، ولا وجود للأسئلة فيها بل لا وجود للعقل مطلقا هناك....
لا زالت هناك الكثير من الأسئلة المؤرقة التي تحيل عليها قصة طرد آدم وحواء من الجنة ، قلنا منذ لحظات إن العقل غير موجود في الجنة ، ولكن حينما كان آدم وحواء أمام حقيقتين ، حقيقة الله وحقيقة الثعبان وضعا أمام إشكالية الفهم والمقارنة والتحليل والاختيار ، لا يمكن أن يحقق الإنسان هذه العمليات في غياب العقل، فهل هناك تناقض في نسق التحليل؟ هل وصلنا إلى الباب المسدود ؟
هناك افتراض قوي يخرجنا من هذه الإشكالية ، إنه افتراض تعمد إدخال العقل إلى الجنة ليتمكن منه آدم وحواء،لكن لماذا؟ ومن فعل ذلك ؟ نعود مرة أخرى إلى الثعبان ، ننظر إليه جيدا لعلنا نكتشف شيئا من شخصيته الغريبة. من خلال حوار الثعبان مع حواء تبدو في حديثه نزعة عقلية تفكر وتحلل وتستنتج ، لهذا يمكن أن نطرح السؤال التالي :ألا يمثل الثعبان العقل المغيب في الجنة ؟
يمثل الثعبان الحقيقة الثانية وهذا ما يفيد استحالة وجود حقيقة واحدة ، ونرجح أن الله وضعه في الجنة ليراه آدم وحواء ، بواسطته اكتشفا الثنائية التي توجد أصلا في كل وحدة . حينما قدم لهما الثعبان ثمرة المعرفة قال لهما : "ذوقا هذه الثمرة ستصبحان مثل الآلهة" ولكن مثل الآلهة في ماذا ؟ مثلهما في المعرفة .. معرفة الآلهة تتجاوز إدراك آدم وحواء ، معرفة الله تتضمن جوهر الوحدة وهي الثنائية ذاتها ، لأن الله يعرف الممنوع والمسموح ، الشر والخير، غير أنه كان يحتفظ بذلك

لنفسه ، إلى أن اكتشف آدم وحواء ذلك بمحض اختيارهما حينما التقيا بالثعبان أو حينما دفعا بهما ليلتقيا يه...
عندما نصل إلى معرفة الثنائية في جوهر الوحدة ، فإننا نبتعد عن البديهية وتنشأ فينا القدرة على التمييز بين الشر والخير كما تنشأ فينا الإرادة الحرة le libre arbitre
حينما قال الله لآدم يمكن أن تأكل من كل الثمار ولكن لا تقترب من ثمار شجرة المعرفة ، في الحقيقة أخبره ضمنيا بوجود الثنائية في الجنة، أخبره بوجود المسموح والممنوع ، وهكذا كان على آدم وحواء أن يتجنبا الشجرة بما أنها تمثل الممنوع ، زكان لهما الحق في أن يقتربا من كل الأشجار الأخرى لأنها تمثل المسموح. فهل يتحملان أية مسؤولية ؟ هل يحق لنا أن ندينهما، لأنهما خرجا من الجنة ودفعا بنا لنعيش في عالم المادة مع الموت والألم ؟
في الحقيقة لا يمكن أن ندينهما أو نبرئهما ، لقد اختارا أن يتبعا حركتهما الداخلية، اختارا أن يعيشا تجربة الحرية، يرى روسو أن الطرد من الجنة يمثل الطرد من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية، حيث سيكون على الإنسان أن يحرث الأرض و يعمل ، كما سيصبح مسؤولا عن الصورة التي ستمثله أمام الآخر، وقد تم هذا التحول عبر العمل والعلم والتقنية.
قد يشعر الكثير منا أننا نعيش الجحيم في هذا العالم السفلي نتيجة خروج آدم من الجنة ، لكن ليس معنى هذا أننا نستحق جحيم هذا العالم لأننا مذنبون، ولكن نحن موجودون فيه لنتعلم ونعرف ، وقد نقترف جرما كبيرا في حق الحياة إذا

اعتبرنا أنفسنا مذنبين وتخلينا عن إرادتنا الحرة وتشبثنا بالأوهام ....
إن تحدى آدم ورفضه الانصياع لأمر الله كان من اجل الاستضاءة بنور المعرفة ،نحن أيضا علينا أن ننير حياتنا بأنوار المعرفة ، وإن أدى بنا ذلك إلى ركوب مغامرة وجودية جديدة .

## 13- أسطورة الحق الخرافي في سفر التكوين

تستغل أحيانا الأساطير لتأسيس حقا خرافيا ، قد نكتشف هذا الاستغلال بالعودة إلى الأساطير والخرافات التي وردت في سفر التكوين وأحيطت بهالة من التقديس فتناقلتها الديانات السماوية الأخرى .

كانت بداية تأسيس الحق الخرافي العبري من حلال اختلاق نصوص وضمها إلى كتاب العهد القديم ، وإحاطتها بهالة من القدسية لإبعاد الفضوليين والنقاد والمهتمين بدراسة القصص الخرافية ، من بين أهم النصوص المؤسسة للحق الخرافي العبري نذكر نص/ خرافة " لعنة حام" التي ارتبطت بنوح منقذ البشرية من الطوفان الذي سلطه الله على البشر عقابا لهم ، فما هو مضمون نص/ خرافة لعنة حام ؟ ما هي علاقته بحكاية الطوفان ؟ وكيف استغل اليهود خرافة اللعنة لتحقيق فانتازم شعب الله المختار ؟ وفانتازم الأرض الموعودة ؟

بعد عملية الخلق التي وردت في كل الديانات الإبراهيمية وبعد أن طرد الله آدم وحواء من الجنة واستقرا على الأرض ، بدأت عملية التوالد وتكاثر النسل ، لكن البشرية اتجهت نحو الخطيئة ما أثار غضب الله فسلط عليهم طوفانا جارفا ..

روت كل الكتب السماوية القصة ،عرضت بكل تفاصيلها في التوراة ، يمكن أن نلخصها في مجموعة من الأحداث .

كانت البداية حينما قام نوح بدعوة الناس للرجوع إلى الإيمان بالله وطاعته، مكث يدعوهم قروناً عديدة، لكنهم لم يتوبوا فأنزل الله عليهم عقابه ، سلط عليهم الطوفان لإفناء العاصين ، ثم ستبدأ حياة بشرية جديدة مع نوح وإلهه وثلة من المؤمنين

الناجين من العقاب .. غير أن حدود الاتفاق بين السرد القرآني والتوراة يقف عند حدود ذكر الأسباب والنتيجة ، لتخوض التوراة في بعض التفاصيل مثل مقاييس السفينة ،وأسماء أبناء نوح ونسبة ارتفاع مياه الطوفان وغيرها.... لكن الغريب أن هذه القصة لا نجدها في الكتب السماوية فقط وإنما هي موجودة في أساطير حضارات العالم القديم خاصة الحضارة السومرية والبابلية والكنعانية في العراق القديم ومنطقة الشام .

حينما نقرأ قصة الطوفان في الكتب السماوية والألواح السومرية والبابلية والكنعانية نجد تقاربا كبيرا في أحداث القصة إلى درجة التطابق بين ما ورد في إحدى اللوحات الحجرية لملحمة جلجامش، وبين قصة الطوفان كما وردت في سفر التكوين ، ما يعني أن القصة ذات منبع واحد ، قد يكون تلك الألواح التي اكتشفت في جنوب العراق ،التي يعود تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

لا توجد أدلة أركيولوجية تحيل على وجود شخصية نوح التي وردت في كل الكتب السماوية ، بينما خلف السومريون والبابليون والكنعانيون أدلة أركيولوجية ،عبارة عن ألواح مكتوبة وردت فيها القصة التي تناقلتها الكثير من الشعوب على مر التاريخ البشري ، لكننا لا نتوفر على أي دليل يؤكد على أن قصة الطوفان وقعت فعلا بنفس الشكل الذي وردت في الألواح السومرية أو غيرها .

كان الكتاب المقدس العبري أول كتاب نقل القصة ،حسب المحكي إن نوح عاش في المنطقة التي كانت مسرحا لكل الأساطير والحكايات، التي ظهرت قبل التوراة بآلاف السنين.

كان اليهود يتواجدون بكثرة في تلك المنطقة وقد تعرضوا للطرد من طرف البابليين زمن ما يعرف بالسبي البابلي ويزعم اليهود أن بابل بنيت من طرف نوح بعد الطوفان ..
بعد خروج اليهود من بابل توجهوا شرقا نحو بلاد الكنعانيين التي كانت تضم سوريا ولبنان وفلسطين ،ويروي الكتاب المقدس العبري أن النبي ابراهيم هاجر بزوجته سارة إلى مصر، ولكنه بعد مدة قصيرة عاد مع أسرته بصحبة زوجته الثانية هاجر، وتروي الرواية الإسلامية أن إبراهيم استقر في المنطقة بعد أن أخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ...
المنطقة التي استقر فيها اليهود بعد السبي البابلي كانت للكنعانيين وبعدهم آلت للفينيقيين والكنعانيين معا ،لم تكن أبدا أرضا لليهود . عاش الكنعانيّون في أجزاء واسعة من بلاد الشام في سوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين؛ ولم تكن تلك الأراضي مُقسَّمة إلى بلدان، إلا أنّ فلسطين هي التي سُمِّيت بأرض كنعان، وبقيت معروفةً بهذا الاسم إلى عام 1200ق.م ،وكانت مدينة أور سليم هي عاصمة أرض كنعان، سُمِّيت بهذا الاسم نسبةً إلى السّلام لدى الكنعانيّين ،ومن أور سليم تحولت إلى أورشليم والقدس في الفترة الإسلامية.
عرفت المدينة غزوات كثيرة من طرف كل الحضارات المجاورة منها الرومانية والفارسية والإغريقية ، لكنها تحولت إلى فانتازم سكن اليهود ،حيث سيسعون للسيطرة عليها منذ انهيار مملكة داود المزعومة ـالتي لا يوجد أي سند أركيولوجي يؤكد وجودها غير ما جاء في الكتب المقدسة اليهودية ،العهد القديم والجديد والتلمود، ولازال الوهم قائما إلى يومنا هذا، من أجل العثور على الهيكل الخرافي ولازالت

الحفريات مستمرة تحت مسجد قبة الصخرة الذي بني في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان...
تشبث اليهود بوهم الهيكل ،كما تشبثوا بوهم المنقذ الذي يعيد بناء مملكة داود الخرافية على أرض فلسطين، كما نسجوا فانتازمات أخرى تمثلها صورة شعب الله المختار والأرض الموعودة ... سيسعى اليهود إلى إثبات حق وهمي ناتج عن فانتازمات وأوهام سكنت عقلهم الجمعي. وبما أنهم يحملون مجرد فانتازمات سيلجؤون إلى اختلاق خرافات يلبسونها لبوسا دينيا مقدسا ...
إن تحقيق فانتازم الأرض الموعودة يمر عبر تأسيس فانتازم شعب الله المختار بمواصفات دقيقة أولها إثبات انحدارهم من سلالة سام بن نوح صاحب الطوفان ومنقذ البشرية ،والعمل على إبعاد كل الأجناس المنافسة ومنعها من مشاركتهم في الانتماء إلى شجرة باركها الجد المنقذ نوح ،ومن باركهم الجد المنقذ يباركه الله إلى الأزل، لكن اليهود واجهوا إشكالا كبيرا قد يضع حدا لفانتازم شعب الله المختار، ما هو هذا الإشكال ؟
الإشكال يتلخص في أن المصادر التاريخية المستندة على المرجعية الأسطورية والديني ،وبغض النظر عن درجة علميتها ووثوقيتها ، تقول بأن السكان الأصليين لفلسطين أرض كنعان يشتركون مع اليهود في نفس الجد ،كلهم حسب الأسطورة ينحدرون من سام بن نوح منقذ البشرية ،وهذا ما لا يريده اليهود الذين تسكن أرض فلسطين لاوعيهم، لا يريدون أن يشاركهم تلك الأرض أي شعب في الماضي والحاضر والمستقبل ،الأرض لهم ولا تسع شعبين اختارهما الله ليكونا مباركين ، ينحدران من نفس الشجرة المباركة ، لذا يمكن أن

نعتبر حل الشعبين المتجاورين هو مجرد وهم ولا يمكن أن يقبله اليهود المستوطنين ذوي التوجه الصهيوني ، لكن كيف سيخرج اليهود من هذا المأزق؟ ما هو الحل الذي اهتدوا إليه؟
اهتدى اليهود إلى اختلاق أسطورة سموها " لعنة حام " وهي التي اعتبرت المخرج الذكي من هذه الورطة لكن كيف ؟ فكر اليهود في نسج أسطورة داخل الأسطورة ، اختلقوا قصة خرافية لا أساس لها ولا دليل تستند عليه ، بكل بساطة أجبروا نوحا على أن يلعن حام الذي سينصبونه جدا للكنعانيين ، لكن لماذا سيلعن نوح ابنه حام ؟ لعنة نوح ذكرت في سفر التكوين تحكي قصة غضب نوح من حام والد كنعان ولعنه .
تحيل هذه اللعنة على حكاية خرافية تعرف باسم "سُكْر نوح" ،وقد وردت في سفر التكوين الإصحاح 9:" وبدأ نوح في العمل فلاحاً، وغرس كرماً وشرب النبيذ فسكر وتعرى في خيمته. فأبصر حام أبوكنعان عورة أبيه، وأبلغ أخويه بالخارج. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، فهم ما عمل به ابنه الصغير. فنطق: ملعون كنعان عبد العبيد قد يكون لإخوته. ونطق: مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا له. ليفتح الله على يافث فيسكن في خيام سام، وليكن كنعان عبدا له."
تروي القصة وبكل بساطة أن نوح شرب خمرا ، فسكر ونام عاريا في خيمته ، دخل عليه حام فرأى عورة أبيه ، نادى على أخويه سام ويافث ليشاهدا عورة أبيهم ،إلا أن الأخوين

رفضا ، وسترى عورة أبيهما وهما ينظران إلى الخلف ... حينما استفاق نوح من سكره عرف ما حدث ،فلعن حام جد الكنعانيين وبارك سام الذي ستر عورة أبيه ... إنه السناريو أو المسرحية الخرافية التي اخترعها اليهود ليطردوا كنعان ابن حام من الجنس السامي المبارك، فيخلوا لهم الجو ليعلنوا أحقيتهم السماوية في أرض فلسطين ...

يرى الكثير من الدارسين المعاصرين للأساطير التي تضمنها سفر التكوين أن الغرض هو سلب أراضي وأملاك الكنعانيين ، وهناك من اليهود والمسيحيين من فسروا سبب وجود البشرة السوداء بين البشر بهذه اللعنة ، لقد جعلوا السود يحملون عبء لعنة نوح على جدهم حام ،وهو تبرير يعبر عن نزعة عنصرية مقيتة ، ولا يستقيم على عقل وعلم ومنطق، بل يؤكد أن الديانة اليهودية تختلق الأساطير لتبريرتفوقهم الجنسي وسلب حق الفلسطينيين في أرضهم ، ولا تتوانى على إحاطة أساطيرها بهالة من القداسة المزيفة حتى لا يجرؤ أي أحد على نقدها ،ومن فعل يتهم بعداء السامية..

في الحقيقة لا وجود لأي تبرير من وراء اختلاق أسطورة لعنة حام ، سوى الإيهام بأن اليهود هم شعب الله المختار الذين اصطفاهم دون باقي الشعوب ووعدهم بأرض الميعاد.

لقد وجد اليهود في الأساطير التي نسجوها أو سرقوها من الحضارات الأخرى ،التبرير الملائم لجعل فانتازم شعب الله المختار حقيقة ثابتة ، وذلك بنقل تلك الأساطير إلى مصاف الحقيقة الثابتة المقدسة والادعاء أن الله أنزلها الله على أنبيائهم الذين يعدون بالآلاف ، وهذا ما خلق ازدحاما وتراكما في كم

ونوع الأساطير اليهودية ، وقد ارتفعت درجة الإيهام بمصداقيتها حينما انتقلت إلى الديانات السماوية الأخرى ، بل نجد بعض المؤرخين المسلمين الكبار مثل الطبري يروي حكاية لعنة نوح على أنها حقيقة موضوعية وبواسطتها هو الآخر يبرر سبب وجود ذوي البشرة السوداء . إن حيلة اليهود في إنزال اللعنة على الكنعانيين ساكني أرض فلسطين انطلت على المؤرخين ، كما تناقلتها الديانات السماوية وهكذا أصبح الطريق معبدا لليهود للمطالبة بأرض كنعان...

إنها مجرد أسطورة من بين الكثير من الأساطير التي يبرر بها اليهود حقهم الأزلي في أرض فلسطين .إن وضع حد لهذا الفانتازم العنصري الذي تسبب في تشريد الفلسطينيين يمر عبر المعرفة ، علينا أن نعرف حقيقة اليهودية كدين بشري يبرر سطو وسرقة أرض الآخر بواسطة نصوص كتبها البشر وأحاطوها بهالة من التقديس ،من يشكك فيها أو ينتقدها أو يرفضها يتهم بعدائه للسامية من طرف أعداء القيم الإنسانية ، ويتهم بالكفر من طرف المسيحيين والأصوليين المسلمين، لأن الكتب السماوية تناقلت الكثير من الأساطير اليهودية ،وجعلت منها نصوصا مقدسة يحرم قراءتها على ضوء العلم والعقل النقدي...

## خاتمة

بغض النظر عن الثقافة أو الديانة، إن أساطير الخلق تجمع بين البشر بخيوط الإنسانية المشتركة، نجد فيها تصويرًا لعمق الروح البشرية وإيمانها بالقوى العليا والقدرة على التحول والتجديد.

وهي تستمر في تذكيرنا بأننا نعيش في عالم ينبض بالأحداث والتحولات الدائمة ، تحيل على إرث إنساني غني ومتنوع ، يتقاطع في ما نؤمن به وما نبحث عنه ، وهي تحمل بين طياتها حكمة وجمالًا يستحق الاستكشاف والاحتفاء، لذلك دعونا نبقى متعاطفين مع تلك الأساطير ونواصل البحث عن معانيها العميقة، متأملين في أننا سنجد فيها إلهامًا وإشراقة للتواصل مع العالم الذي نعيش فيه ، بأمل أن يستمر الاكتشاف والتفكير والنقد، وأن نقربها من الأجيال الجديدة، ملهمة ومذهلة ومحفزة على أن يطرحوا تساؤلاتهم وفهم واقعهم وعيش تجاربهم الوجودية، علينا أن نعرف أننا كلنا جزء من هذه الأساطير، وأن قدرتنا على خلق وتغيير العالم لا حدود لها.

المراجع والمصادر


1. "مغامرة العقل الأولى" بقلم فراس السواح
2. "الأسطورة والديانات "بقلم زكريا الدغيم
3. "الأسطورة في الفكر العربي "بقلم محمد عبده الجابري
4. "الأسطورة ودلالاتها "بقلم عبد الله الجريسي
5. أساطير السومريين" بقلم ساموبل نوح كرامر
6. "الأساطير السومرية: مدخل إلى الفكر والثقافة السومرية" بقلم محمد حمود النجار
7. "الحضارة السومرية والأسطورة والتاريخ" بقلم محمد جابر الرميحي
8. "الأساطير السومرية والعالم القديم" بقلم أحمد الطاهر الزاهد
9. "الأساطير البابلية" بقلم عبد الرزاق الحسيني
10. "الأسطورة البابلية للخلق والطوفان" بقلم علي عزت الخليفة
11. "الأسطورة البابلية للخلق وتوحيد الآلهة" بقلم عبد العزيز صادق المحمدي
12. "الأساطير البابلية وتأثيرها على الحضارات القديمة" بقلم عادل عبد الفتاح
13. "مصر الفرعونية" بقلم السيد القمني .
14. "مصر القديمة وحضارات الشرق القديم" بقلم السيد القمني

15. "حضارة الفراعنة" بقلم السيد القمني
16. "الأساطير والديانات في مصر القديمة" بقلم لورانس بوبويه
17. "الحضارة المصرية القديمة: الديانات والأساطير" بقلم جون فريزر
18. "الأساطير والأسطورة في مصر القديمة" بقلم جون غارنر وماركوس موين
19. "الديانات والأساطير: الزرادشتية" بقلم حنا عيسى محروم
20. "الفلسفة والديانة الزرادشتية" بقلم حبيب الله فريدوني
21. "الزرادشتية: الديانة والأسطورة والثقافة" بقلم علي إسماعيل
22. "الأسطورة الأمازيغية: دراسة في الثقافة الأمازيغية" بقلم عبد الحميد الحاج شريف
23. "الأسطورة والخرافة في ثقافة الأمازيغ" بقلم عبد الرحمن محمد علي
24. "الثقافة والأسطورة الأمازيغية: دراسة في التراث الشفهي" بقلم عبد الحميد بن سليمان
25. "الأساطير والفلكلور الأمازيغي" بقلم عبد القادر بن سالم
26. "الديانات والطقوس في الحضارات القديمة" بقلم أحمد نجم.

27. سفر التكوين - كتاب الأصل والخلق" بقلم د. عبد الله ماهر الشامي
28. "تفسير سفر التكوين" بقلم مارون الكتاتني
29. "التكوين - دراسة تفسيرية" بقلم نبيل فهمي
30. "التكوين - الخلق والأصل" بقلم القس بولس حليم.
31. القرآن

الفهرس

الاهداء..... 4
هذا الكتاب.....5
حينما خلق الانسان الأسطورة..... 6
أسطورة الخلق السومرية..... 13
الطوفان السومري العقاب واعادة الخلق.....24
أسطورة الخلق البابلية.....30
أسطورة الخلق الفرعونية..... 39
أسطورة الخلق الإغريقية ..... 59
أسطورة الخلق الزراديشتية .....77
أسطورة الخلق الأمازيغية..... 88
الاساطير وطقوس تقديم القرابين..... 105
الخنزير حضور ميثولوجيا مأساوي .....129
طرد آدم من الجنة قراءة فلسفية..... 152
أسطورة الحق الخرافي في سفر التكوين..... 165
خاتمة..... 172
مراجع ومصادر.....174
الفهرس..... 176